

جاءك لندن

نداء البداية



0180082

Library of Alexandria

Bibliothèque Alexandrine

نداء البداية



Author : Jack London

Title : The Call of The Wild

Translator: Seliem A. Hamdan

Al- Mada P.C.

First Edition : year 2000

Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : جاك لندن

عنوان الكتاب : نداء البراءة

المترجم : سليم عبد الأمير حمدان

الناشر : المدي

الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٠

الحقوق محفوظة

دار للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E - mail : al - madahouse @ net.sy ، البريد الإلكتروني

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

جاک لندن

نداء البداة

ترجمة

سليم عبد الأمير حمدان



« اشتياقات قديمة، قفزة بداوة،

اضطراب على سلسلة العادة،

ومرة أخرى من نومته الشتائية

يستيقظ السلف الوحش ».

إلى البدائي

لم يكن (بك) يقرأ الصحف ، والا لكان عرف أن المشكلة كانت تختمر ، لا بالنسبة له وحده ، وإنما لكل كلب في شرقي فرجينيا ، قوي العضلات ، ذي شعر دافئ طويل ، من (بوجيه ساوند) وحتى (سان ديينغو) . فلأن رجلاً - يبحثون في الظلمة القطبية - قد وجدوا معدناً أصفر ، ولأن السفن البخارية وشركات النقل كانت توسع الاكتشاف ، فإن آلاف الرجال كانوا يندفعون نحو أرض الشمال . كان أولئك الرجال يريدون كلاباً ، والكلاب التي يريدونها ينبغي أن تكون ثقيلة ، ذات عضلات قوية تمكنها من الكدح ، كما كانوا يحتاجون إلى سترات الفراء لتحميهم من الصقيع .

كان (بك) يحيا في بيت كبير في (سانتا كلارا فالي) ، الذي تقبله الشمس . كان يدعى بيت القاضي ميلر . كان خلف الطريق ، نصف مخفي بين الأشجار ، التي كان يمكن أن تلمح من بينها الفيرانده الفسيحة الباردة التي تلتف حول جوانب البيت الأربعة . كان الوصول إلى البيت يتم عن طريق دروب عربات مكسوة بالحصى ، تلتف عبر مروج متسعة تحت الأغصان المتشابكة لأشجار شربين طويلة . وفي المؤخرة كانت الأشياء على قياس أكثر اتساعاً منها في المقدمة . كانت ثمة اصطبلات عظيمة ، تنطوي على دزينة من السياس والصبيان . وصفوف من أكواخ الفلاحين المدثرة بأغصان

الكروم . وتشكيلة منتظمة لا تنتهي من الدفيئات . وخمائل العنب الطويلة .
والمراعي الخضراء والبساتين والفسحات المزروعة بالتوت ، ثم كانت ثمة
معدات الفتح للبئر الارتوازية ، والخزان الاسمنتي الكبير حيث كان صبيان
القاضي ميلر يأخذون حماماتهم الصباحية ويتبردون في العصري الحارة .

على هذه الممتلكات العظيمة كان (بك) يحكم . هنا ولد ، وهنا عاش
سني عمره الأربع . صحيح أنه كان ثمة كلاب أخرى ، لم يكن ممكناً إلا أن
تكون ثمة كلاب أخرى في مكان على تلك السعة ، ولكنها كانت غير ذات
شأن . كانت تأتي وتذهب ، تقيم في بيوتها الحاشدة أو تعيش منسية في
تجاويف المنزل على طريقة (توتس) ، اليابانية الصغيرة قصيرة الشعر ذات
الوجه المغضن والذيل المعقوف ، أو (ايزابيل) ، عديمة الشعر المكسيكية -
وهما مخلوقتان غريبتان نادراً ما كانتا تدسان أنفيهما خارج الأبواب أو
تقدان قدماً إلى الدرب . ومن جانب آخر ، كانت ثمة كلاب صيد الثعالب :
عشرون منها على الأقل ، والتي كانت تصرخ وعوداً خائفة لتوتس وايزابيل
وهما تطلان عبر النوافذ عليهما ، تحميها فصيلة من خوادم البيت المسلحات
بالمكانس والمماسح .

ولكن (بك) لم يكن كلب بيت ولا كلب وجاق . كان كل الاقليم ملكه .
كان يخوض في خزان السباحة أو يمضي للصيد مع أولاد القاضي . كان يرافق
(مولي) و(أليس) ، ابنتي القاضي ، في سياحات طويلة أوقات الفسق أو عند
الصباحات المبكرة ، وفي ليالي الشتاء كان يتمدد عند قدمي القاضي أمام نار
الموقد المدوئية ، وكان يحمل أحفاد القاضي على ظهره ، أو يدرجهم على
العشب ، ويحرس خطاهم عبر المغامرات الوحشية إلى أسفل ، حتى النافورة
الكائنة في ساحة الاصطبل ، وحتى أبعد من ذلك ، حيث كانت تقع ساحات
تدريب الخيل والفسحات المزروعة بالتوت . وبين كلاب صيد الثعالب كان

يمشي مصراً بجلال ، وتوتس وايزابل كان يتجاهلهما كلية ، لأنه كان ملكاً ، ملكاً على كل الأشياء الزاحفة والماشية والطائرة في بيت القاضي ميلر . بما فيها البشر .

كان أبوه . (المو) ، وهو كلب ضخيم من فصيلة السان برنار ، رفيق القاضي الذي لا ينفصل عنه ، وقد بدا محتملاً أن يقتفي (بك) خطأ أبيه . لم يكن ضخماً إلى ذلك الحد - فلم يكن وزنه ليزيد عن مائة وأربعين رطلاً - لأن أمه . (شيب) ، كانت من كلاب الصيد السكوتلندية . ومع ذلك ، فإن مائة وأربعين رطلاً - مضافاً إليها المقام الناتج عن الحياة الطيبة والاحترام الشامل - كانت تمكنه من التبخر في طراز ملكي صحيح . طيلة السنوات الأربع منذ جراوته كان قد عاش حياة ارستقراطي مكثف ، كان يحس فخراً بديعاً بنفسه ، وكان دائماً زائد الاهتمام بذاته ، كما يصير سادة الريف ، أحياناً ، بسبب مراكزهم المنعزلة . ولكنه كان قد أفقذ نفسه بأنه لم يصير مجرد كلب منزلي رخي . إن الصيد ، ومباهج خارج البيت المشابهة ، قد أبقت له قليل الشحم وصلبت عضلاته . وبالنسبة له - كما بالنسبة للأجناس المستحمة في البرودة - كان حب الماء قد صار مقويًا وعامل حفاظ على الصحة .

تلك كانت حال الكلب التي كان (بك) عليها في خريف ١٨٩٧ ، عندما جذبت ضربة (الكولوندايك) رجالاً من كل العالم إلى الشمال المتجمد . ولكن (بك) لم يكن يقرأ الجرائد ، ولم يعرف أن (مانويل) ، أحد مساعدي البستاني ، كان من المعارف غير المرغوب فيهم . كانت لمانويل خطينة لصيقة واحدة ؛ كان يحب أن يلعب اليانصيب الصيني . وكذلك كانت له في مغامراته نقطة ضعف محيرة واحدة - الإيمان بمنظومة كاملة من اليانصيب ، وكان ذلك يجعل خرابه التام أكيداً . لأن لعب منظومة كاملة يتطلب مالاً ، في حين أن

أجور مساعد بستاني لا تزيد عن متطلبات زوجة وذرية متعددة .
كان القاضي في اجتماع لجمعية منتجي الزبيب ، وكان الأولاد مشغولين
في تنظيم ناد رياضي ، في تلك الليلة التي لا تنسى لخيانة مانويل . لم يره
أحد وهو يبتعد مع (بك) عبر البستان في ما تصوره (بك) مجرد نزهة على
الأقدام . وباستثناء رجل منفرد ، لم يرهما أحد وهما يصلان محطة القطار
الصغيرة المعروفة باسم (كولج پارك) . وقد تحدث هذا الرجل مع مانويل ،
وخشخش المال بينهما .

- « يمكنك أن تلف البضاعة قبل أن تسلمها » ، قال الغريب بفظاظة .
فقص مانويل قطعة حبل متين حول عنق (بك) تحت الطوق . قال مانويل :
- « شدة . وستخنقه كثيراً » ، فقرر الغريب تأكيداً جاهزاً .

تقبل (بك) الحبل بوقار هادئ ، من المؤكد أن ذلك كان عملاً غير
مألوف ، ولكنه كان قد تعلم أن يثق بالرجال الذين يعرفهم ، وأن يسلم لهم
بالأرجحية لحكمة تتجاوز حكمته الخاصة . ولكن ، عندما وضع طرف الحبل
في يدي الغريب ، نبض بتهديد ، لقد أعلن فقط سخطه . مؤمناً - بفخر - أن
الإعلان يعني الأمر . ولكن الحبل ، لدهشته ، اشتد حول رقبته ، كاتماً نفسه .
وفي غضب سريع قفز على الرجل ، الذي تقدم لملاقاته ، فأمسك به وثيقاً من
الخنجرة ، وبلفتة بارعة رماه ، طارحاً إياه على ظهره . ثم اشتد الحبل دون
رحمة ، في حين ناضل (بك) بسعار ، ولسانه يتدلى خارج فمه ، وراح صدره
العظيم يلتهب بعجز . لم يسبق له في حياته كلها أن عومل بتلك الطريقة
المهينة ، كما لم يسبق له طوال حياته أن صار على ذلك الحد من الغضب .
ولكن قوته تلاشت ، وعشيت عيناه ، ولم يعرف شيئاً عندما تم إيقاف القطار
ورماه الرجلان في عربة الحمل .

كان ثاني ما عرفه أنه قد أدرك بشكل غامض أن لسانه كان يؤلمه وأنه

كان يجري نقله - مخضوضاً - في نوع من أنواع الناقلات ، وقد أخبره الزعيق الأجش ، لقاطرة تصفر أثناء عبورها ، بموقعه . كان قد سافر غالباً مع القاضي ، بحيث كان يسيراً له أن يعرف الاحساس بركوب عربة حمل . فتح عينيه ، واليهما جاء الغضب الطليق السافر لملك مختطف . قفز الرجل لحماية حنجرته . ولكن (بك) كان سريعاً جداً بالنسبة له . انطبق فكاه على اليد ، ولم يرتخيا حتى غابت عنه حواسه مرة أخرى .

- « اي ، له نوبات » ، قال الرجل ، هو يخفي يده المشوهة عن مسؤول الحمل ، الذي اجتذبتة أصوات الصراع . « انني آخذه إلى الرئيس في فرسكو* . ثمة طبيب كلاب من الدرجة الأولى هناك يظن أن بمقدوره أن يشفيه » .

وفيما يتعلق بسفر تلك الليلة ، تحدث الرجل بأكثر ما يكون طلاقة عن نفسه ، في ظليلة صغيرة خلف صالون على بر سان فرانسيسكو . تدمر :
- « كل ما أحصل عليه ، عنه ، هو خمسون . وإنني ما كنت لأفعل لقاء ألف ، نقداً بارداً » .

كانت يده ملفوفة بمنديل دام ، وكانت الساق اليمنى من بنطلونه مشقوفة من الركبة حتى الكاحل ، سأله مسؤول الصالون :

- « كم يحصل الجلف الآخر ؟ » . فكان جوابه :
- « مائة . ما رضي أن يأخذ أقل ولو فلساً واحداً . وهكذا ، فليساعدني الله » . فحسب مسؤول الصالون :

- « ذلك يصير مائة وخمسين ، وأنه ليستحقها ، وإلا فأنا غبي » .
فك الحاطف اللفافات الدامية ونظر إلى يده الممزقة :

- « إن لم أصب بالعجز عن ابتلاع الماء... » ، فضحك مسؤول الصالون :

* يعني سان فرانسيسكو - المترجم .

- « ذلك لأنك ولدت لتشنق » ، ثم أضاف ، « هيا ، ساعدني قبل أن تسحب حملك » .

مصاباً بالدوار ، معانياً المأ لا يحتمل من الحنجرة واللسان ، والحياة نصف المكتومة عنه ، حاول (بك) أن يواجه معذبيه . ولكنه كان يطاح به ويخنق تكراراً ، حتى نجحاً في قص الطوق البرونزي الثقيل عن عنقه ، بالمبرد . ثم خلع الحبل ، وألقى به في صندوق مشبك شبيه بالقفص . هناك تمدد لما تبقى من تلك الليلة المتعبة ، مدارياً غضبه وكرامته الجريح . لم يكن بمقدوره أن يفهم ما كان ذلك كله يعنيه . ماذا كانا يريدان به ، هذان الرجلان الغريان ؟ لماذا يقيانه محجوراً في هذا الصندوق الضيق ؟ لم يعرف لماذا ، ولكنه أحس الاضطهاد من الشعور الغامض بالعداء الوشيك . وبضع مرات أثناء الليل قفز عندما كانت البوابة المضللة تتفتح منفتحة ، متوقفاً أن يرى القاضي ، أو الأولاد على الأقل . ولكن في كل مرة كان الوجه المنفوخ لمسؤول الصالون هو الذي يحمل في على ضوء مريض لشمعة شحمية . وفي كل مرة كان النباح المرح الذي يرتعش في بلعوم (بك) ينقصف إلى هدير وحشي .

ولكن مسؤول الصالون تركه لوحده ، وفي الصباح دخل أربعة رجال ورفعوا الصندوق . استقر رأي (بك) على أنهم مزيد من المعذبين . لأنهم كانوا مخلوقات شريرة النظرات . ذات ثياب رثة وشعورهم شعثاء ، فكان يعصف ويغضب عليهم من خلال القضبان ، كانوا يكتفون بالضحك ومد العصي نحوه ، تلك العصي التي كان يهاجمها فوراً بأسنانه حتى أدرك أن ذلك كان ما يريدون . وعندئذ تمدد منطوياً وترك الصندوق يرفع إلى عربة . ثم بدأ ، هو والصندوق الذي سجن فيه ، بالتقلع عبر أيد عديدة . تحمل مسؤوليته كتاب في دائرة القطار السريع . وتم نقله بعربة أخرى . وحملته عجلة شحن مع

تشكيلة من العلب والرزم ، على عبارة بخارية ، وتم قطره من العبارة إلى مخزن عظيم للسكة الحديد ، وأخيراً أودع في عربة نقل سريع .

طيلة يومين وليلتين جرى سحب العربة السريعة تلك وراء قاطرة زاعقة ، وطيلة يومين وليلتين لم يأكل (بك) ولم يشرب شيئاً . في غضبه استقبل الخطوات الأولى لسعاة العربة السريعة هاراً ، فردوا بأن أخذوا بماحكونه . وعندما طوح نفسه على القضبان ، مرتجفاً ومزبداً ، ضحكوا منه وصبوا عليه الإهانات . هروا ونبحوا مثل كلاب مكروهة . وماؤوا ، ولوحوا بأذرعهم ونعقوا . كان يعرف أن ذلك كله كان سخيلاً ، ولكنه كان لذلك أكثر استفزازاً لكرامته ، فاشتد غضبه واشتد ، لم يبال الجوع كثيراً ، ولكن افتقاد الماء سبب له معاناة حادة وتساعد غضبه إلى درجة الحمى . لذلك السبب ، وإذا كان منفلت المشاعر بالغ الحساسية ، ألقى به سوء المعاملة في حمى ، كان يغذيها التهاب بلعومه ولسانه المتيسين ، المتورمين .

كان يسعده شيء واحد : لقد رفع الحبل عن عنقه . كان ذلك يعطيهم تفوقاً غير عادل . ولكن الآن وقد رفع . سيرينهم . انهم لن يضعوا حبلاً آخر حول عنقه . على ذلك عزم . طيلة يومين وليلتين لم يأكل ولم يشرب قط . وخلال يومي العذاب وليليته تلك ، جمع ثروة من الغضب كانت تلوح مخيفة لكل من كان يتورط معه أولاً . انغلقت عيناه بفعل تصاعد الدم . وقد انمسخ إلى شيطان غاضب . كان قد تغير بحيث أن القاضي نفسه ما كان ليميزه ، وقد تنفس سعاة العربة السريعة الصعداء عندما حشروه خارج القطار في سياتل .

حمل أربعة رجال ، باعتناء ، الصندوق المشبك من العربة إلى ساحة خلفية صغيرة عالية الجدران . خرج رجل سمين ، يلبس بلويزة حمراء كانت متهدلة بارتخاء حول الرقبة ، وقع الدفتر للسائق . كان ذلك الرجل ، كما

خمن (بك) . هو المعذب التالي ، فطوى نفسه بوحشية على القضبان . ابتسم الرجل بضراوة ، وجلب بلطة وهراوة . سأل السائق :

- « انك لا تنوي أن تخرجه الآن ؟ » .

- « بالتأكيد » . رد الرجل وهو يدفع البلطة إلى الصندوق المشبك متوجساً .

جرى تبعثر فوري للرجال الأربعة الذين سبق أن حملوا الصندوق المشبك إلى الداخل ، واستعدوا ليراقبوا العرض من مساند أمينة في أعلى الجدار .

اندفع (بك) نحو الخشب المتباعد . دافئاً أسنانه فيه ، تاركاً قمصاراً إياه . كلما كانت البلطة تقع إلى الخارج ، كان هو هناك في الداخل : هارا زائراً ، متوثباً باندفاع للخروج بقدر ما كان الرجل ذو البلويزة الحمراء هادئاً في نيته على إخراجه . وقال :

- « والآن . أنت يا وحشاً أحمر العينين » بعد أن أحدث فتحة كافية لمرور جسد (بك) وفي نفس الوقت أسقط البلطة ونقل الهراوة إلى يده اليمنى . ولقد كان (بك) حقاً وحشاً أحمر العينين . عندما شد نفسه متجمعاً للقفزة ، ملتصع الشعر . مزبد الفم ، في عينيه اللتين أعماهما الدم بريق مجنون .

مستقيماً نحو الرجل قذف مائة وأربعين رطله من الاندفاع ، المتأججة بالعاطفة المكبوتة ليومين وليلتين . وفي منتصف الفضاء . بالضبط عندما كان فكاه على وشك الانطباق على الرجل ، تلقى صعقة قيدت جسده وطبقت أسنانه إطباقاً مؤلمة . تلوى منطرحاً ، جاعلاً الأرض على ظهره وجنبه . لم يسبق له أن ضرب بهراوة في حياته . فلم يفهم . بزئير كان شيئاً من نباح وكثيراً من زعيق عاد للوقوف وانقذف في الهواء . ومرة أخرى جاءت الصعقة فانطرح منسحقاً على الأرض . هذه المرة أدرك أن ذلك كان بفعل الهراوة .

ولكن جنونه لم يعرف حذراً . وهجم عشر مرات ، وبنفس العدد كسرت الهراوة الهجوم وحطمته حتي طرحته .

وبعد ضربة قاسية بشكل خاص زحف على قدميه ، وقد داخ أكثر مما يسمح له بالانطلاق . تعثر بارتخاء ، والدم يسيل من أنفه وفمه وأذنيه . وقد ترشش كساءه الجميل وتبقع بلعاب دام . ثم تقدم الرجل وقدم له طوعاً ضربة مخيفة على الأنف . كان كل الألم الذي تحمله لا شيء بالمقارنة مع الألم المبرح المتفرد لهذا الألم ، وبزئير يشبه زئير الأسد تقريباً في ضراوته ، طوح نفسه مرة أخرى نحو الرجل . ولكن الرجل ، ناقلأ الهراوة من يمين إلى يسار ، أصابه ببرود في الفك الأسفل ، ملتفأ بنفس الوقت إلى أسفل وإلى وراء . رسم (بك) دائرة كاملة في الهواء ، ونصف دائرة أخرى ، ثم انسحق إلى الأرض على رأسه وصدره .

لآخر مرة انطلق . فضرب الرجل الضربة القاسية التي أخرها عن قصد طيلة هذا الوقت ، فاندھس (بك) وانطرح ، ساقطاً عديم الاحساس تماماً .

- « إنه ليس عاجزاً فيما يتعلق بتدجين الكلاب ، هذا ما أقول » ، صرخ أحد الرجال الجالسين على الجدار ، بحماس .

فكان جواب السائق ، فيما صعد العربة وحرك الحصانين :

- « يدجن (دروثر) الجياد الهندية في أي يوم ، ومرتين أيام الأحد » .

عادت إلى (بك) حواسه ، ولكن لم تعد قوته . تمدد حيث سقط ، ومن هناك أخذ يراقب الرجل ذا البلوزة الحمراء .

- « يجب على اسم (بك) » . هكذا تحدث الرجل مع نفسه ، مقتبساً من دفتر مسؤول الصالون ، الذي كان يبين إرسالية الصندوق ومحتوياته . وواصل بصوت دافئ :

- « حسناً يا (بك) ، يا فتاي . ها قد كان لنا شجارنا الصغير ، وأفضل

شيء، يمكننا فعله هو أن ننسى ما جرى . لقد تعلمت مكانك . وأنا أعرف مكانني . كن كلباً طيباً وسيجري كل شيء حسناً ويكون كل شيء على ما يرام . كن كلباً رديناً وسأضربك حتى أخرج حشوتك منك . مفهوم ؟ » .

فيما كان يتكلم ، ربت بلا خوف على الرأس الذي كان ضربه بدون رحمة . ومع أن شعر (بك) قفّ طوعاً لللمسة اليد ، إلا أنه تحملها بدون اعتراض . وعندما جلب له الرجل الماء ، شرب بلهفة ، وبلغ فيما بعد وجبة كريمة من اللحم ، قطعة قطعة . من يد الرجل .

لقد ضرب (كان يعرف ذلك) ، ولكنه لم يتحطم . لقد رأى ، مرة وإلى الأبد ، أنه لم يكن يحظى بفرصة ضد رجل يحمل هراوة . لقد تعلم الدرس ، وطيلة حياته اللاحقة لم ينسه قط . كانت الهراوة كشفاً . كانت مدخله إلى سلطان القانون البدائي ، وقد قابل المدخل في منتصف الطريق . اتخذت حقائق الحياة منحى أقسى ، وفيما واجه ذلك المنحى دون وجل ، فقد قابله بكل الوقاحة الكامنة لطبيعته المستثارة . وفيما مرت الأيام ، جاءت كلاب أخرى ، في صناديق مشبكة وعند نهايات حبال ، بعضها باستعداد للتعلم ، وبعضها يسعر ويعوي عندما كانت تُجّج . وقد كان يراقبها - مفردة وجميعاً - تمر تحت سلطة الرجل ذي البلوزة الحمراء . مرة بعد مرة ، فيما كان ينظر إلى كل عرض وحشي ، كان (بك) يستذكر الدرس : إن رجلاً يحمل هراوة هو مصدر للقانون ، سيد يجب أن يُطاع . مع أنه لا يتم كسبه يسيراً بالضرورة . لم يرتكب (بك) هذه الخطيئة قط ، مع أنه رأى كلاباً مضروبة كانت تقترب إلى الرجل ، بهز ذيولها ولعنق يده . وقد رأى أيضاً كلباً ، لم يكن يسترضي ولا يطيع ، يقتل أخيراً في الصراع من أجل السيادة .

مرة وأخرى كان يأتي رجال ، غرباء ، كانوا يتكلمون بتهيج ، بتملق ، وبكل أنواع الأساليب ، مع الرجل ذي البلوزة الحمراء . وفي الأوقات التي

كان المال يتم تداوله بينهم ، كان الغرباء يأخذون كلباً أو أكثر معهم . وكان (بك) يتساءل أين يذهبون . لأنهم لم يكونوا يعودون أبداً . ولكن الخوف من المستقبل كان يسيطر عليه قوياً ، وكان سعيداً في كل مرة عندما لا يتم اختياره .

ومع ذلك ، فقد حان وقته . أخيراً ، في شكل رجل صغير نحيف كالقصبه كان يبصق انكليزية مكسرة والعديد من تعابير التعجب الغريبة الجافية التي لم يكن بمقدور (بك) أن يفهمها . عندما أضاءت عيناه لمرأى (بك) ، صرخ : - « اللعنة! ذلك الكلب - الثور الواحد الملعون! ايه ؟ كم ؟ » .

« ثلاثمائة ، وهو هدية بهذا السعر » ، ذلك كان الجواب الآتي من الرجل ذي البلوزة الحمراء :

- « واذا أرى انها نقود حكومة ، فليس هناك ما يجبرك على المجيء ، ايه يا (بيرو) ؟ » .

كشر بيرو . واذا تأمل أن أسعار الكلاب قد قفزت إلى عنان السماء بفعل الطلب الشاذ فإن ذلك لم يكن مبلغاً غير منصف لحيوان على تلك البداعة . لن تكون الحكومة الكندية خاسرة ، ولن تتأخر رسائلها في السفر . كان بيرو يعرف الكلاب ، وعندما كان ينظر إلى (بك) كان يعرف أنه واحد من ألف . كان يعلق ذهنيّاً :

- « واحد من عشرة آلاف » .

رأى (بك) النقود تنتقل بينهما ، ولم يندهش عندما تم اقتياده مع (كيرلي) ، وهي كلبة طيبة الطبع من فصيلة النيو فاوندلاند ، من قبل الرجل النحيف الصغير . كان ذلك آخر ما رآه من الرجل ذي البلوزة الحمراء ، وفيما تطلع هو وكيرلي إلى انسحاب (سياتل) من رصيف (الناروال) ، كان ذلك آخر ما رآه من أرض الجنوب الدافئة . أخذ هو وكيرلي إلى أسفل من قبل بيرو وتم تسليمهما إلى عملاق أسود يدعى فرانسوا . كان بيرو كندياً من أصل

فرنسي ، وداكنأ ، ولكن فرانسوا كان كندياً من أصل فرنسي هجين ، وضعف داكن ، كانا نوعاً جديداً من الرجال بالنسبة إلى (بك) ، وكان من حظه أن يرى الكثيرين منهم ، وفيما لم ينشأ لديه أي حب لهما إلا أنه ، مع ذلك ، ازداد احتراماً لهما باخلاص . وسرعان ما تعلم أن بيرو وفرانسوا كانا رجلين عادلين ، هادئين وغير متحيزين في إقرار العدل ، وبالفى الحكمة فيما يتعلق بكيفية إيذاء الكلاب للكلاب .

في ما بين أرصفة الناروال ، انضم (بك) وكيرلي إلى كلبين آخرين . كان أحدهما كلباً كبيراً أبيض كالثلج من (سبيتز بيرغن) تم جلبه إلى هناك على يد قبطان يصيد الحيتان ، انضم فيما بعد إلى بعثة جيولوجية متجهة إلى (البارنز) .

كان ودوداً ، بطريقة مخاتلة ، يبتسم في وجه الواحد بينما يتأمل حيلة خفية ما ، كما فعل - مثلاً - عندما سرق من طعام (بك) عند الوجبة الأولى . فنيما قفز (بك) ليعاقبه ، غنى سوط فرانسوا عبر الهواء ، بالنأ المجرم أولاً ، ولم يبق أمام (بك) غير أن يستعيد العظم . كان ذلك عدلاً من فرانسوا ، كما استقر رأيه ، وبدأ الهجين صعوده في تقدير (بك) .

لم يقم الكلب الآخر بأية محاولات للتقرب ، كما أنه لم يتلق أية محاولات من هذا النوع ، كما أنه لم يحاول أن يسرق من القادمين الجدد . كان صاحباً حزيناً ، جافياً . ولقد أظهر لكيرلي بوضوح أن كل ما يتمناه هو أن يترك وشأنه . كان يدعى (ديف) ، كان يأكل وينام ، ويتشاءب فيما بين ذلك ، ولا يظهر رغبة في أي شيء ، ولا حتى عندما تعبر الناروال (ساوند كوين شارلوت) وتتدحرج وتنشمر وتغلي مثل شيء به مس . وعندما كان (بك) وكيرلي يتهيجان ، نصف متوحشين من الخوف ، كان يرفع رأسه كما لو كان يحس قلقاً ، ويمن عليهما بنظرة غير فضولية ، ويتشاءب ثم يعود للنوم ثانية .

كانت الباخرة تنبض ليل نهار على وقع صوت الرفاس الذي لا يكلّ ،
ومع أن اليوم كان يشبه الآخر ، فقد كان واضحاً لـ(بك) أن الجو كان يزداد
برودة . وأخيراً ، ذات صباح ، هدا الرفاس ، وتخلل الناروال جو الانفصال .
أحس ذلك ، كما فعلت الكلاب الأخرى ، وعرف أنه كان ثمة تغير وشيك .
شد فرانسوا الكلاب بحبل وجلبها إلى السطح . وعند الخطوة الأولى على
السطح البارد ، غاصت أقدام (بك) في شيء أبيض عجيني يشبه الطين
كثيراً . قفز متراجعاً وهو ينخر . وكان المزيد من هذه المادة البيضاء يساقط
من فوق . هز نفسه . ولكن المزيد منه تساقط عليه . تشممه بفضول . ثم
لعق بعضاً منه على لسانه . قرصه مثل النار ، وفي اللحظة التالية ذهب . خيره
هذا . وحاول مرة ثانية ، فأحرز نفس النتيجة . ضحك المتفرجون بصخب .
فأحس خجلاً ، ولم يعرف لماذا ، لأن ذلك كان جليده الأول .

٢- قانون الهراوة والناب

كان يوم (بك) الأول على ساحل الـ(ديا) مثل كابوس . كانت كل ساعة مملوءة بالصعقة والدهشة . لقد سحب فجأة من قلب المدينة وأطيح به في قلب أشياء أزلية . لم تكن هذه حياة كسولا تقبلها الشمس ، لا يفعل فيها شيئاً غير أن يكسل ويسأم . هنا لم يكن ثمة سلام ولا راحة ولا أمن لحظة واحدة . كان كل ما هنالك الارتباك والعمل ، وفي كل لحظة كانت أعضاء البدن والحياة نفسها تتعرض للخطر . كانت ثمة حاجة مؤكدة لأن يكون الكلب يقطاً على الدوام ، لأن هؤلاء الكلاب والرجال لم يكونوا كلاب المدينة ورجالها . كانوا متوحشين ، جميعهم ، لا يعرفون قانوناً غير قانون الهراوة والناب .

لم يسبق له أن رأى كلاباً تتعارك كما كانت هذه المخلوقات الذنبية تتعارك ، وقد علمته تجربته الأولى درساً لا ينسى . صحيح أنها كانت تجربة بالنيابة ، وإلا لما كان قد عاش لينتفع بها . وكانت كيرلي الضحية . كانوا قد خيموا قرب مخزن الخشب ، حيث أخذت - بطريقتها الودية - تقوم بحركات تقترب بها إلى كلب هوسكي* بحجم ذئب تام النمو ، مع أنه لم يكن ليلبلغ نصف حجمها . لم يكن ثمة تحذير ، بل مجرد قفزة كالوميض ،

* من كلاب الاسكيمو .

وقعقة معدنية لأسنان ، وقفزة ابتعاد بمثل الحقة ، ها قد تمزق وجه كيرلي مفتوحاً من العين إلى الفك .

كانت تلك حال الذنب في العراك ، الضرب ثم الابتعاد قفزاً ، ولكن كان فيها شيء أكثر من ذلك . لقد ركض ثلاثون أو أربعون هوسكياً إلى الموقع وطوقوا المتعاركين بدائرة محكمة وصامتة . لم يفهم (بك) ذلك الإحكام الصامت ، ولا الطريقة المتلهفة التي كانت تعلق بها شفاهها . دفعت كيري خصمها ، الذي ضرب ثانية وقفز جانباً . ثم قابل اندفاعتها التالية بصدرة ، بطريقة غريبة قلبتها عن قوائمها . ولم تستعد قوائمها قط . وكان ذلك ما كانت الكلاب الهوسكية تنتظره . تحلقت حولها ، مكشرة ونابحة ، حتى اندفقت - وهي تصرخ في ألم مبرح - تحت كتلة الأجساد المنتصبة .

وكان ذلك من الفجأة ، ومن عدم التوقع ، بحيث أن (بك) ذهل له . رأى (سبتز) يمر لسانه القرمزي بطريقة كان يستعملها عندما يضحك ، ورأى فرانسوا - ملوحاً بفأس - يقفز داخل فوضى الكلاب . كان ثلاثة رجال يحملون الهراوات يساعدونه على بعثرتها . لم يستغرق ذلك طويلاً . فبعد هبوط كيرلي متداعية بدقيقتين ، كان آخر مهاجميها يطرد بالهراوات . ولكنها كانت تتمدد هناك رخوة وعديمة الحركة في الثلج الدامي المداس بالأقدام ، تكاد تكون ممزقة إلى نتف ، حرفياً ، والخلاسي داكن اللون يقف فوقها ويلعن بفضاعة . غالباً ما كان المشهد يعاود (بك) ليزعج منامه . اذن ، فهكذا كانت الطريقة . ليست لعبة عادلة . ما أن تسقط ، حتى تكون تلك نهايتك . حسناً ، سيراغي الا يتداعى هاوياً قط ، أمر سبتز لسانه مركزاً إياه وضحك مرة أخرى ، ومنذ تلك اللحظة كرهه (بك) بحقد مرير لا يموت .

وقبل أن يغيق من الصدمة التي سببها الموت الفاجع لكيرلي ، تلقى صدمة أخرى . لقد ثبت فرانسوا عليه شبكة من القيود والأبازيم . كانت مواد

سراجة ، مثل تلك التي رأى السياس يضعونها على الخيل في موطنه . كما كان قد رأى خيلاً تعمل ، فقد تم سوقه إلى العمل ، يجر فرانسوا على زحافة إلى الغابة التي كانت تحيط بالوادي ، وعانداً بحمل من خشب الوقود . ومع أن كرامته قد أوذيت بمرارة بجعله حيوان جر على هذه الصورة ، فقد كان أعقل من أن يتمرد . لقد تطوع بإرادة وفعل أحسن ما يستطيع ، مع أن ذلك كله كان جديداً وغريباً . كان فرانسو متشدداً ، يطلب الطاعة الدائمة ، وبفاعلية سوطه كان يتلقى الطاعة الأنية ، وفي حين كان ديف ، الذي كان مراوفاً ذا خبرة ، يعرض قائمته (بك) الخلفيتين كلما كان يخطئ . كان سبتر القائد ، وهو ذو خبرة كخبرة ديف ، وفيما لم يكن بمقدوره الوصول دائماً إلى (بك) ، فقد كان يزار بين الحين والآخر تعنيفاً حاداً ، أو يرمي وزنه - بتحرش - بين الأعنة لكي يشمر (بك) إلى الطريق التي سيمضي عليها . وتعلم (بك) ببسر ، وتحت التعليم المشترك لرفيقيه ولفرانسوا ، حقق تقدماً ملحوظاً ، وما أن عادوا ليخيموا حتى كان يعرف ما يكفي لكي يقف عند صيحة « هو » ، وأن ينطلق عند سماعه « امض » ، وأن يتحرك عريضاً على العقد ، وأن يفسح الطريق أمام العجلة عندما كانت الزحافة المحملة تنطلق نازلة التل في أعقابهم .

- « ثالث كلب جيد جداً » ، أخبر فرانسوا بيرو .

- « ذاك (بك) ، هو يسحب مثل الجحيم . أنا أعلمه سريعاً مثل أي

شيء » .

وعند العصر عاد بيرو - الذي كان يتعجل أن يصير على الطريق مع رسائله - ومعه كلبان آخران ، (بيلي) و(جو) كان يدعوهما ، وكانا أخوين ، وهوسكيين حقيقيين كلاهما . ومع أنهما كانا ابن أم واحدة ، إلا أنهما كانا مختلفين اختلاف النهار عن الليل . كانت غلطة (بيلي) الوحيدة طبعه ذا

الطيبة الزائدة ، في حين كان (جو) النقيض التام : فظاً ومنطوياً ، وله نباح مستديم وعنيف حقود . استقبلهما (بك) على نحو ودي ، وتجاهلهما ديف ، في حين شرع سبتز يضرب الأول منهما أولاً ، ثم الثاني . هز بيلي ذيله مهدناً ، واستدار ليركض عندما رأى أن التهدة كانت غير ذات جدوى ، وصرخ ، (ما يزال مهدناً) ، عندما جرحت أسنان سبتز الحادة كشحه . ولكن حالما دار سبتز ، فقد دوم جو على عقبه كي يواجهه ، وعرفه مشرب ، وأذناه مطوحتان إلى وراء ، وشفاته تتلويان وتنعدان ، وفكاه يقرقعان معاً بأسرع ما كان بمقدوره أن يطبقهما ، والعينان تشعان بشيطانية - تجسيدا لخوف المقاتل . ولقد كان مظهره يدل على ارتعاب بحيث اضطر سبتز أن يتخلى عن محاولته ، ولكن لكي يغطي ارتبأكه الذاتي استدار نحو بيلي اللاهجومي ، والنادب ، وساقه إلى حدود المخيم .

عند المساء أمن بيرو كلباً آخر ، هوسكيا كبيراً ، طويلاً ونحيفاً ومغضباً ، له وجه علمته المعارك وعين واحدة كانت تومض تحذيراً من شجاعة تفرض الاحترام . كان يدعى (سول - ليكس) ، أي : الغاضب . مثل ديف ، لم يكن يطلب شيئاً ، ولا يعطي شيئاً ، ولا يتوقع شيئاً ، وعندما كان يتمشى ببطء وتعمد إلى وسطهم ، كان حتى سبتز يتركه وشأنه . كانت له خاصية واحدة كان (بك) من سوء الطالع بحيث كان هو الذي اكتشفها . لم يكن يحب أن يقترب إليه أحد من جهته العمياء . ولقد ارتكب (بك) هذا الذنب من دون قصد ، وكانت أول معرفة حصل عليها عن لا لياقته عندما دوم سول ليكس نحوه وشق كتفه حتى العظم بطول ثلاثة انجات إلى أعلى وإلى أسفل . وحتى النهاية بعدئذ كان (بك) يتجنب جانبه الأعمى ، وحتى النهاية من رفقتهم لم يصادف مشاكل أخرى . وكان طموحه الوحيد الظاهر ، شأنه شأن ديف ، أن يترك شأنه ، مع أن كليهما - كما عرف (بك) فيما بعد -

كان له طموح آخر ، وحتى أكثر حيوية .

تلك الليلة واجه (بك) مشكلة النوم العظمى . كانت الخيمة - التي تضيئها شمعة - تشع بدفء ، وسط السهل الأبيض ، وعندما دخلها - على نحو طبيعي - قصفه بيرو وفرانسوا معاً باللعنات وأوعية الطبخ ، حتى أفاق من ذعره المشل وهرب خجلاً إلى برد الخارج . كانت ريح باردة تهب فتخزه بحدة وتنهش بحقد خاص داخل كتفه الجريح . استلقى على الجليد وحاول أن ينام ، ولكن سرعان ما ساقه الصقيع مرتعشاً للوقوف على قدميه . تعيساً وغير مرتاح ، تجول في الأنحاء بين عدة خيم ، لا لشيء إلا ليجد أن هذا المحل يمثل برودة ذاك . هنا وهناك كانت كلاب متوحشة تندفع نحوه ، ولكنه كان يقف شعر رقبته ويكشر عن أنيابه (لأنه كان يتعلم سريعاً) ، فكانت تتركه يمضي لطيته دون ازعاج .

أخيراً جاءته فكرة : أن يعود فيرى كيف كان زملاؤه في الفريق يتدبرون شأنهم . وما أدهشه أنهم اختفوا . مرة أخرى راح يتجول عبر المخيم العظيم ، باحثاً عنهم ، ومرة أخرى عاد . هل كانوا في الخيمة ؟ كلا ، لا يمكن أن يكون ذلك ، وإلا لما طرد هو خارجاً . اذن ، فأين يمكن أن يكونوا ؟ بذيل متهدل وجسد مرتعش ، وهو مخذول جداً في الحقيقة ، تسكع دائراً حول الخيمة . فجأة هوى الجليد تحت قائمته الأماميتين فهبط غانصاً . تلوى شيء ما تحت قائمته ، قفز متراجعاً ، منتصباً وعائياً ، خائفاً من اللا مرئي واللا معلوم . ولكن صرخة ودية صغيرة طمنته ، فرجع يتقدم كي يتحرى جلية الأمر . صعدت نسمة من الهواء الدافئ إلى منخريه ، وهناك ، منطوياً تحت الجليد في كرة مرصوفة ، كان يتمدد ببلي . تملق مسترضياً ، وانطوى وتلوى لبيبن حسن إرادته ونواياه ، بل حتى جازف - كرشوة من أجل السلام - أن يلحق وجهه (بك) بلسانه الدافئ الرطب .

درس آخر . إذن ، فتلک طریقتهم لتدبر الأمر ، ایه ؟ اختار (بك) ، واثقاً ، نقطة . ویمزید من الصخب ومضیعة الجهد ، انطلق یحفر لنفسه فجوة . وبسرعة خاطفة ملأت الحرارة المنبعثة من جسده المجال المحدد فنام . كان النهار طویلاً ومجهداً ، فنام نومة عميقة مرتاحة ، مع أنه هرّ ونبح وتصارع مع أحلام رديئة .

ولم یفتح عینیه حتی أیقظته ضجة المخیم المستیقف . فی البدء ، لم یعرف أين كان . لقد هطل الجلید طيلة اللیلة فدفن تماماً . كانت جدران الجلید تضغطه من کل جانب ، فاكتسحته موجة طاغیة من الخوف - خوف الوحش من الفخ . كان ذلك علامة على أنه كان یسترجع ، عبر حیاته الخاصة ، حیوات أسلافه ، لأنه كان كلباً متحضرأ ، كلبأ متحضرأ أكثر من اللازم ، لم یعرف من تجربته الخاصة أي فخ ، وهكذا فلم یكن بمقدوره أن یخشاہ من ذاته . تقلصت عضلات جسده كله بتشنج وبغریزية ، قف شعر عنقه وكثفیه ، وبعواء ضار قفز باستقامة إلى النهار المعمی ، والجلید یططایر حوله فی غمامة براقه . ما أن استقر على قدمیه ، حتی رأى المخیم الأبيض ممتداً أمامه فعرف أين كان وتذكر كل ما مر منذ ذهب یتمشی مع مانویل حتی الحفرة التي حفرها لنفسه اللیلة الماضية .

حیت صرخة من فرانسوا ظهوره :

- « ماذا أنا أقول ؟ » ، هكذا صرخ سائق الكلاب نحو بیرو .

- « ذاك (بك) مؤكد یتعلم سریعأ مثل أي شيء » .

هز بیرو رأسه من أعلى إلى أسفل متأملاً . إنه ، وهو حامل برید الحكومة الكندیة ، الذي ینقل مراسلات هامة ، كان یهتم بتأمین خیرة الكلاب ، وكان مسروراً بشكل خاص لحصوله على (بك) .

أضيفت ثلاثة هوسکیات إلى الفریق خلال ساعة ، جاعلة إیاه مؤلفأ من

تسعة ، وقبل مرور ربع ساعة أخرى أسرجت وكانت تتبختر بين الأعنة نحو وادي الدنيا . سر (بك) لأنهم انطلقوا ، ومع أن العمل كان شاقاً إلا أنه وجد أنه لا يمكنه أن يكرمه . وقد دهش للأهفة التي أحيت الفريق كله ، التي انتقلت إليه ، ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة كان التغيير المصمم على ديف وسول ليكس . كانا كليبن جديدين ، تغيرا تماماً بفعل السراجة . سقطت عن الكلاب كل سلبية ولا مبالاة . كانت متيقظة ونشيطة ، متلهفة على أن يجري العمل حسناً ، ومتهيجة بضراوة لكل ما من شأنه - نتيجة للتأخير أو الازباك - أن يؤخر العمل . وبدا الكد على الطريق التعبير الأسمى عن وجودها وعن كل ما كانت تعيش من أجله والشيء الوحيد الذي تبتهج له .

كان ديف «دواراً» ، أو كلب زلاجة ، وكان (بك) يجر أمامه ، ثم يأتي سول ليكس ، وكان باقي الفريق مشدوداً إلى أمام ، في رتل منفرد ، حتى القائد ، ذلك المركز الذي كان يشغله سبتز .

كان (بك) قد وضع عمدا فيما بين ديف وسول ليكس بحيث يمكن أن يتلقى التدريب . وبقدر ما كان تلميذاً سريع التعلم ، كانا هما معلمين جيدين ، لا يتركانه يتخلف خطأ ، ويفرضان تعليمهما بأسنانهما الحادة . كان ديف منصفاً وعاقلاً جداً . لم يعض (بك) قط من دون سبب ، كما أنه لم يتخلف عن عضه قط عندما كان يستحق ذلك . ولما كان سوط فرانسوا يعضده ، فقد وجد (بك) أن تصليح أساليبه أرخص من الرد . وذات مرة ، أثناء توقف قصير ، عندما اشتبكت رجله بالأعنة فأخر البداية ، طار ديف وسول ليكس نحوه ووجها له ضرباً شديداً . كان التعثر الناجم عن ذلك أسوأ ، ولكن (بك) اهتم كثيراً بإبقاء الأعنة خالية بعدئذ ، ولما انصرم النهار كان قد تسيد على عمله كثيراً بحيث كاد زميله أن يكفا عن اكتشاف أخطائه . وأخذ سوط فرانسوا يلسع أقل ، بل إن بيرو كرم (بك) برفع قوائمه

وفحصها بعناية .

كان جري يوم شاقاً ، صعوداً في الوادي ، عبر (وادي الخراف) ، تجاوزوا الـ(سكيلز) و(خط الخشب) ، مقابل كتل ثلجية هابطة ومستقرة أعمق بمئات الأقدام . وفوق الـ(شيكلوت ديثايد) العظيم ، الذي يقف ما بين الماء المالح والماء العذب ويحمي الشمال الحزين المتفرد بشكل يجعله منيعاً . واستمتعوا أسفل سلسلة البحيرات التي تملأ فتحات البراكين الخامدة ، وفي وقت متأخر من تلك الليلة اتجهوا إلى المخيم الضخم عند رأس بحيرة (بينيت) ، حيث كان الآلاف من الباحثين عن الذهب يبنون الزوارق عند تكسر الثلج في الربيع . صنع (بك) حفرة في الجليد ونام نومة المتسابق المتعب ، ولكن جرى إخراجه مبكراً ، في الظلام . فأسرج مع زملائه إلى الزلاجة .

في ذلك اليوم قطعوا أربعين ميلاً ، إذ كان الطريق محشواً بالجليد ، ولكن في اليوم التالي ، وفي أيام أخرى تالية ، كسروا طريقهم نفسه وعملوا بجهد أكبر ، وحققوا سرعة أقل . كقاعدة ، كان بيرو يتقدم على رأس الفريق ، جامعاً الجليد بحذائين مصبوبين ، ليسهل الأمر عليهم . أما فرانسوا ، الذي كان يقود الزلاجة عند طرف الإيعاز ، فقد كان يتبادل الموقع معه ، ولكن ليس كثيراً . كان بيرو مستعجلاً ، ولقد افتخر بنفسه لمعرفته بالجليد ، تلك المعرفة التي لم يكن من غنى عنها ، لأن جليد الخريف كان رقيقاً جداً ، وحيث كان ثمة ماء دافق ، لم يكن ثمة جليد على الإطلاق .

يوماً بعد آخر ، طوال أيام لا تنتهي ، كان (بك) يشقى في الأعنة . دائماً كانوا يفككون المخيم في الظلام ، وفي أول خيط رمادي من خيوط الفجر يجدهم يضربون الطريق بأميال جديدة مطوية وراءهم . وكانوا دائماً ينصبون المخيم بعد الظلام ، أكلين حصتهم من السمك ، وزاحفين ليناموا في الجليد . كان (بك) يتصور جوعاً . كان الرطل ونصف الرطل من سمك

السالمون المجفف بالشمس - والذي كان حصته اليومية - يبدو وكأنه لا يذهب إلى مكان معين . لم يكن يتناول كفايته قط ، وكان يعاني من نوبات جوع مستديمة . ومع ذلك ، فإن الكلاب الأخرى - لأنها كانت تزن أقل ولأنها كانت مخلوقة لتلك الحياة - كانت تتسلم رطلاً واحداً فقط من السمك ، ومع ذلك كانت تدبر أمرها فتبقى بوضع جيد .

لقد فقد ، بسرعة ، القرف الذي ميز حياته الماضية . وإذا كان أكلوا منتقياً فقد وجد أن زملاءه - إذ كانوا ينتهون من طعامهم أولاً - يسرقون منه حصته غير المأكولة . لم يكن الدفاع عنها وارداً . فبينما كان يجاهد كلبين أو ثلاثة ليطردها ، كان السمك يختفي في حناجر الآخرين . وليعالج ذلك ، فقد كان يأكل بمثل سرعتها ، كما أنه - إذا كان الجوع يضطره اضطراباً - لم يكن يأخذ ما لا يخصه . كان يراقب ويتعلم . وعندما رأى (بايك) - وهو أحد الكلاب الجديدة - وكان ممرضاً ولصاً ، يسرق بخفة قطعة من لحم الخنزير عندما كان بيرو يدير ظهره ، كرر (بك) العملية في اليوم التالي ، مبتعداً ومعه كل القطعة . ارتفع صخب عظيم ، ولكنه هو لم يكن موضع شك ، في حين عوقب (دوب) - وهو كثير الأخطاء أخرق كان يُكتشف دائماً - بسبب سلوك (بك) الرديء .

لقد ميزت هذه السرقة الأولى (بك) بوصفه قادراً على البقاء في بيئة الشمال المعادية . ميزت قدرته على التكيف ، مقدرته على تكيف نفسه للظروف المتغيرة ، تلك المقدرة التي كان الافتقار لها يعني الموت البطيء . الرهيب . كما ميزت ، أيضاً ، تفسخ أو تهشم طبيعته الأخلاقية ، وهي شيء لا جدوى فيه . وعائق في الصراع القاسي من أجل الوجود . كان جيداً بما يكفي في أرض الجنوب ، في ظل قانون الحب والزمالة ، احترام الملكية الخاصة والمشاعر الشخصية . ولكن في أرض الشمال ، تحت قانون الهراوة والنباب ،

فإن من يأخذ مثل هذه الأمور في الحسبان كان أحمق ، ويقدر ما كان يلتزم بها كان يفشل في أن يعيش برفاهية .

لم يحدث أن فكر (بك) في الأمر . كان قادراً على التكيف ، هذا كل ما هنالك ، ولقد كيف نفسه دون وعي لنمط الحياة الجديد . طيلة أيامه ، بصرف النظر عن المزايا التي في صالحه ، لم يسبق له قط أن فر من قتال . ولكن هراوة الرجل ذي البلوزة الحمراء قد عززت فيه ، بالضرب ، قانوناً أكثر جذرية وبدائية . حين كان متحضرأ ، كان بمقدوره أن يموت من أجل اعتبار أخلاقي ، لنقل : من أجل سوط ركوب القاضي ميلر ، ولكن اكتمال تجرده من الحضارة قد تم التدليل عليه الآن بقدرته على الهروب من الدفاع عن أي اعتبار أخلاقي وهكذا ينقذ جلده . لم يسرق من أجل متعة السرقة ، ولكن بسبب صراخ معدته المستمر . لم يسرق على المكشوف . ولكنه سرق بسريرة وحذق ، احتراماً للهراوة والأنياب . وباختصار ، فإن الأفعال التي فعلها إنما فعلها لأن القيام بها كان أسهل من عدم القيام بها .

كان تطوره (أو رجوعه لماضيه) سريعاً . تصلبت عضلاته كالحديد ، وصار عصياً على كل ألم اعتيادي . لقد حقق اقتصاداً داخلياً بقدر الخارجي . تمكن أن يأكل كل شيء ، لا يهم كم كان كريهاً أو عصياً على الهضم ، ثم - ما أن يؤكل - فإن عصائره معدته كانت تستخلص آخر جزيئة أخيرة من المغذي ، وكان دمه يحملها إلى أبعد مديات جسده ، بانياً إياها ليجعلها أقوى وأمتن الأنسجة . أصبح النظر والشم حادين بشكل ملحوظ ، فيما طور سمعه حدة بالغة بحيث أنه كان يسمع في نومه أخبى الأصوات ويعرف إن كانت تنبئ بالسلام أو بالخطر . تعلم أن يعض الثلج مبعداً إياه بأسنانه عندما كان يتجمع بين أصابع رجليه ، وعندما كان يعطش ويكون ثمة طبقة من الثلج سميكة فوق الحفرة المائية كان يكسرها بالتراجع ويضربها بقائمتيه

الخلفيتين المتصلبتين . وكانت خاصيته الأكثر إثارة للانتباه قدرته على شم
الرياح والتنبؤ بشأنها قبل ليلة . فمهما كان الهواء عديم الحركة عندما كان
يحفر عشه عند شجرة أو جرف ، فإن الرياح التي كانت تهب بعدئذ كانت
تجده حتماً خارج مهب الرياح ، محمياً ومدثراً .

وهو لم يتعلم عن طريق التجربة فقط ، لكن انبثقت فيه حية غرائز كانت
ميتة منذ أمد بعيد . سقطت عنه الأجيال المدخنة . بطرق غامضة تذكر صبا
سلالته ، حتى الوقت الذي كانت فيه الكلاب المتوحشة تجوس ، في حشود ،
الغابة البدائية وتقتل طرائدها فيما هي تلتهمها . لم تكن مهمته أن يتعلم
القتال بالجرح والطعن ونهشة الذئب السريعة . بهذه الحالة قاتلت أسلاف
منسية . لقد عجلت الحياة العتيقة داخله ، وان الحيل القديمة التي انختمت في
إرث السلالة كانت حيله . جاءته من دون جهد أو اكتشاف ، كما لو كانت
عنده على الدوام . عندما كان يصوب أنفه - في الليالي التي ما تزال باردة -
نحو نجمة ما ويعوي طويلاً ومثل الذئب ، كان أسلافه - موتى ومستحيلين
تراها - هم الذين يصوبون الأنوف للنجوم ويعوون نزولاً عبر القرون إليه .
وكانت اتساقاته اتساقاتهم ، الاتساقات التي تعضد حزنهم وما كان بالنسبة
له معنى للسكون والبرد والظلام .

وهكذا ، كعلامة على مدى كون الحياة لعبة ، تصاعدت الأغنية العتيقة
فيه فعاد إلى ذاته الأصلية مرة أخرى ، وقد عاد لأن رجلاً قد وجدوا معدنا
أصفر في الشمال ، ولأن مانويل كان مساعد بستاني لا تتجاوز أجوره
احتياجات زوجته وكان يعدد نسخاً صغيرة من نفسه .

٣- الوحش المسيطر الأزلي

كان الوحش المسيطر الأزلي قوياً في (بك) ، وتحت الظروف القاسية لحياة الطريق نما ونما . ومع ذلك فقد كان نمواً سريعاً . لقد أعطته مهارته حديثة الولادة توازناً وسيطرة . كان مشغولاً جداً في تكييف نفسه للحياة الجديدة بحيث ما كان بمقدوره أن يحس راحة ، وهو لم يكتف بأن لم يبحث عن المنازعات ، بل إنه كان يتجنبها . وقد ميز حذر معين موقفه . لم يكن عرضة للاندفاع والعمل المفاجئ السريع ، وفي الكراهية المريرة بينه وبين سبتز لم يكشف عن أي نفاذ صبر ، قد تجنب كل عمل هجومي باستمرار وعناية بالغين .

ومن الجهة الأخرى ، ربما لأنه عرف في (بك) خصماً خطيراً ، فإن سبتز لم يضيع فرصة قط لإظهار أنيابه . بل إنه حتى خرج عن طوره لكي يستدرج (بك) ، مجاهداً على الدوام كي يبدأ شجاراً ما كان يمكن أن ينتهي إلا بموت أحدهما .

في وقت مبكر من الرحلة كان يمكن لهذا أن يقع لولا حدث غير مألوف . ففي نهاية هذا اليوم أعدوا سمكاً وأقاموا مخيماً تعساً على شاطئ بحيرة (لي بارج) . كان الثلج المهطل ، والرياح التي تقص مثل سكين محمّاة

حتى الابيضاض ، والظلام ، قد أجبرهم على أن يبحثوا بصعوبة عن مكان لإقامة المخيم . بالكاد كان يمكن أن يلقوا أسوأ . وعند ظهورهم كان يرتفع جدار قائم من الصخر ، وقد اضطروا بيرو وفرنساوا إلى إشعال نارهما ونشر حبال نومهما على ثلج البحيرة ذاته . كانا قد أطرحا الخيمة في الديا لكي يسافرا خفيفين . وقد وفرت لهم بضعة أعواد ، من الخشب الذي جرفته المياه ، نارا كانت تذوب في الثلج فتتركهم يتناولون عشاءهم في الظلام .

إلى الداخل تحت الصخرة الحامية أقام (بك) عشه . كان محميا من الطقس ودافئا للغاية بحيث انه كان يكره أن يتركه عندما راح فرانسوا يوزع السمك الذي سبق له أن أذابه على النار . ولكن عندما أنهى (بك) حصته وعاد ، وجد عشه محتلاً . وأخبره هريير تحذير أن المتجاوز كان سبتز . حتى الآن كان (بك) قد تجنب المشاكل مع عدوه ، ولكن هذا كان كثيراً جداً . زار الوحش داخله . قفز على سبتز بسعار أدهشهما كليهما ، وسبتز بشكل خاص ، لأن مجمل تجربته مع (بك) قد علمه أن خصمه كان كلباً حياً بشكل غير اعتيادي ، يتدبر أن يمسك نفسه بسبب وزنه وحجمه العظيمين .

ودهش فرانسوا ، هو الآخر ، عندما انطلقا في اشتباك من العش المنفجر فحدث سبب المشكلة . صرخ بـ(بك) :

- « آ - ه ! أعط له إياها بحق الله ! أعط له إياها ، اللص القذرا ! » .

وكان سبتز راغياً بنفس القدر . كان يصرخ بجنون ولهفة خالصة فيما كان يدور إلى وراء وإلى أمام بحثاً عن فرصة الوثوب للداخل . لم يكن (بك) أقل لهفة ، كما لم يكن أقل حذراً فيما راح هو الآخر يدور إلى وراء وإلى أمام متحيناً الفرصة المناسبة . ولكن في ذلك الوقت وقع اللا متوقع ، وقع ما دفع صراعهما من أجل التسيد بعيداً في المستقبل ، عبر العديد من الأميال

المتعبة من الطريق والكد .

أعلن قَسْمٌ من بيرو ، والوقع الرنان لهرأوة فوق جسد متعظم ، ونبحة ألم حادة ، أعلنت جميعاً اندلاع الجحيم . واكتشف فجأة أن المخيم كان حياً بأشكال فرانية متلصصة ، كلاب أسكيمو متضورة جوعاً ، ثمانين أو مائة منها ، كانت قد شمت رائحة المخيم من قرية هندية . كانت قد زحفت داخلة فيما كان (بك) وسبتر يتقاتلان ، وعندما قفز الرجلان بينها حاملين هراوتين غليظتين كشفت عن أنيابها وقاتلت جواباً . وقد أطاررت صوابها رائحة الطعام . وجد بيرو أحدها ورأسه مدفون في صندوق الطعام . استقرت هراوته بثقل على ضلوع الكلب الهزيل ، فانقلب صندوق الطعام على الأرض . على التو كان عشرون وحشاً ممن يعانون المجاعة يتقاتلون من أجل الخبز ولحم الخنزير . تساقطت الهراوات فوقها دون اعتناء . نبحت وهزت تحت مطر الضربات ، ولكنها بقيت مع ذلك تصارع في جنون لم ينقص حتى تم التهام آخر كسرة .

في هذه الأثناء كانت كلاب الفريق المدهوشة قد انطلقت من أعشاشها لا لشيء إلا لتتفرج على المجتاحين الضواري . لم يسبق أن رأى (بك) قط كلاباً كذلك . كان يبدو كما لو أن عظامها ستشق جلودها . كانت مجرد هياكل عظمية مسدلة عليها ، بارتخاء ، جلود متسخة ، عيونها تبرق وأنيابها تسيل لعباً . ولكن جنون الجوع كان يجعلها مرعبة ، لا تقاوم . ما كانت هناك مقاومة لها . اكتسحت كلاب الفريق إلى وراء حتى الجدار الصخري منذ الهجوم الأول . طوقت ثلاث هوسكيات (بك) ، وفي رمشة عين كان رأسه وكفاه ممزقة وفاغرة . كان الضجيج مخيفاً . كان بيلي يبكي كالمعتاد . وكان ديف وسول - ليكس اللذان ينزفان الدم من عشرات الجروح يقاتلان بشجاعة جنباً إلى جنب . وكان جو ينهش فجأة كالشيطان . ما ان كانت

أنياه تنطبق على القائمة الأمامية لهوسكي ما حتى كان يقضم عبر العظم .
وقفز بايك ، المتمارض ، على الحيوان المصاب بالعجز ، كاسراً عنقه بتعرية
أنياب سريعة وتيرة رأس . وأمسك (بك) بخضم مزبد من الحنجرة ، وقد رشه
الدم عندما غاصت أسنانه في شريان العنق . حفزه المذاق الدافئ في فمه إلى
ضراوة أعظم . طوح نفسه على آخر وأحس بنفس الوقت أنياباً تغوص في
حنجرتة ذاتها ، كان سبتز يهاجمه ، بخيانة ، من جانب .

بعد أن نظف بيرو وفرانسوا حصتهما من المخيم ، أسرعاً لإنقاذ كلاب
زحافتها . انطوت الموجة الضارية من الوحوش التي جنتها المجاعة أمامهما ،
ونفض (بك) نفسه فحررها . ولكن ذلك لم يدم غير لحظة . فقد اضطر
الرجلان للمجري عاندين كي ينقذا الطعام ، الذي عادت الهوسكيات إليه رداً
على هجوم الفريق عليها . قفز ببلي ، الذي نفخ فيه الرعب شجاعة ، عبر
الدائرة المتوحشة وفر هارباً فوق الثلج . تبع بايك ودوب خطاه ، وبقية الفريق
إلى الخلف منهما . وفيما تجمع (بك) كي يقفز وراء الجميع ، رأى من طرف
عينه سبتز يتطلق نحوه واضح النية في الاطاحة به . وما أن يتداعى على
قدميه ويستقر تحت كتلة الهوسكيات حتى لا يعود أمامه أي أمل . ولكنه
تصلب أمام صعقة هجوم سبتز ، ثم انضم إلى الفرار خارجاً على البحيرة .

فيما بعد ، تجمع كلاب الفريق التسعة معاً وبحثوا عن مأوى في الغابة .
ومع أنهم لم يكونوا مطاردين ، فقد كانوا في حال تبعث على الأسف . لم
يكن منهم واحد غير مجروح في أربعة مواضع أو خمسة ، في حين كان
بعضهم مجروحاً بشكل مروع . كان دوب مصاباً بشكل مؤلم في قائمة
خلفية ، وحصلت (دولي) - وهي آخر هوسكية أضيفت إلى الفريق في الدنيا
- على حنجرة ممزقة شر ممزق ، وققد جو عيناً ، في حين كان ببلي - طيب
الطبع - الذي خرج بإذن معلوكة لم يتبق منها غير شرائط ، يبكي ويعول

طوال الليل . وعند طلوع النهار ساروا ، يعرجون ، عاندين بحذر إلى المخيم ، ليجدوا الغزاة قد ذهبوا والرجلان في مزاج ردي . كان نصف تجهيزهم من الطعام قد ذهب . لقد مضى الهوسكية حبال الزلاجة والأغطية الجنفاص . في الحقيقة ، لم ينج من مخيمهم شيء ، كائنا ما كان ، ومهما بعدت صلاحيته عن الأكل . لقد أكلوا زوج صنادل بيرو المصنوعين من جلد الوعل ، وشريحة من الأعنة الجلدية ، وحتى قدمين من القرباج من نهاية سوط فرانسوا الذي انفصم عن تأملاته الآسية كي يتطلع إلى كلابه الجريحة ، قال بنعومة :

- « آه ، يا أصدقائي ، قد تجعلكم مسعورة ، هذه العضات الكثيرة ، ربما هي جميعها مسعورة ، اللعنة! ماذا تظن أنت ، يا بيرو ، ايه ؟ » .
هز المراسل رأسه متوجساً . فإذا كانت لا تزال هنالك أربعمئة ميل من الطريق بينه وبين داوسون ، فما كان بمقدوره أن يتحمل انفجار السعار بين كلابه . أعادت ساعتان من السباب والاجهاد السروج إلى وضعها الطبيعي ، وصار الفريق المجروح المتصلب على الطريق ، مجاهداً بألم على أصعب جزء من الطريق الذي واجهه لحد الآن ، والذي كان لذلك السبب الجزء الأصعب بينهم وبين داوسون .

كان نهر (الترتي مايل) مفتوحاً . كان ماؤه المتوحش قد تحدى الصقيع ، وقد كان الثلج في الأماكن المنزوية وفي الأماكن الراكدة فقط يتماسك . تطلب الأمر ستة أيام من الجهد المرهف لتغطية هذه الأميال الثلاثين المربعة . ومربعة كانت ، لأن كل قدم منها كان يتم تخطيه مجازفة بحياة كلب أو إنسان . عشر مرات خرق بيرو - وهو يكاد ينكب على الطريق متشمماً - جسور الثلج ، ولم يكن ينقذه إلا العمود الطويل الذي كان يحمله ، والذي كان يحمله بطريقة تجعله يسقط دائماً عبر الحفرة التي كان يصنعها جسده ،

ولكن موجة باردة كانت تهب ، والمحرار يسجل خمسين تحت الصفر ، وفي كل مرة كان يشق طريقه كان يضطر ، من أجل الحياة ذاتها ، أن يشعل ناراً وأن يجفف ملابسه .

لم يكن يخيفه شيء . ولأنه لم يكن يخيفه شيء فقد اختير مراسلاً حكومياً . اتخذ كل هيئة المغامرة ، غارزاً بعزم وجهه الجاف الصغير في الصقيع ومكافحاً من الفجر المعتم حتى ظلام الليل . طاف الشيطان الصامتة على الجليد الدائري الذي كان يتقوس ويخشخش مت هشماً تحت قدميه ، والذي لم يكونوا ليجرؤوا على التوقف فوقه . ذات مرة ، سقطت الزلاجة في فجوة ، وهي تحمل ديف و(بك) ، حتى كادا يتجمدان وأوشكا أن يغرقا عندما جرى سحبهما إلى فوق . وكانت النار الاعتيادية ضرورية لإنقاذهما . كانا قد تغلفا بمعطف سميك من الثلج ، وأبقاهما الرجلان يتحركان عند النار ، وهما ينضحان عرقاً ويذويان ، قريبين أحدهما من الآخر بحيث كان اللهب يحرق شعرهما .

وفي مناسبة أخرى سقط سبتز ، ساحباً وراءه الفريق كله لغاية (بك) ، الذي راح يشد متخلفاً بكل قوته ، ومخالبه الأمامية على الحافة الزلقة فيما الثلج يهتز ويتحطم حوله من كل مكان . ولكن وراءه كان ديف ، يشد مثله إلى وراء ، ووراء الزلاجة كان فرانسوا يسحب حتى تمزقت ألياف عضلاته .

ومرة أخرى ، انهار جليد الإطار من أمام ومن وراء ، ولم يعد ثمة من مفر عدا اللجوء إلى ما فوق الجدار الصخري . رفعه بيرو بمعجزة ، فيما كان فرانسوا يصلي من أجل تلك المعجزة بالذات ، وبكل شريط جلدي وقطعة جبل زلاجة ، وبآخر قطعة من السراجة متخللة في حبل طويل ، رفعت الكلاب ، واحداً بعد الآخر ، حتى النتوء الأعلى للجدار الصخري . صعد فرانسوا في الآخر ، بعد الزلاجة والحمل ، ثم جاء البحث عن مكان للهبوط ، ذلك الهبوط

الذي تم أخيراً بمعونة الحبل ، ووجدهم الليل مرة أخرى على النهر وقد قطعوا المسافة إلا ربع ميل أثناء النهار .

في الوقت الذي اجتازوا عنده ال(هوتالنكوا) والثلج الجيد ، كان (بك) قد نفذت طاقته . كانت بقية الكلاب في حال مشابهة ، ولكن بيرو - لكي يعوض الوقت الضائع - كان يدفعها متأخراً ومبكراً . في اليوم الأول قطعوا خمسة وثلاثين ميلاً حتى ال(بيغ سالمون) ، وفي اليوم التالي خمسة وثلاثين ميلاً أخرى حتى ال(لتل سالمون) ، وفي اليوم الثالث أربعين ميلاً جعلتهم يقتربون كثيراً من ال(فايف منغرز) .

لم تكن قوائم (بك) متماسكة وصلبة مثل قوائم الهوسكي . لقد نعمت قدماء خلال الأجيال العديدة منذ اليوم الذي تم فيه تدجين آخر أسلافه المتوحشين على يد ساكن كهوف أو رجل نهري . طيلة النهار كان يعرج في ألم مبرح ، وما أن يقام المخيم حتى يتمدد مثل كلب ميت . ورغم كونه جانعاً ، فإنه ما كان ليتحرك كي يحصل على حصته من السمك ، فكان فرانسوا يضطر إلى حملها إليه . وكذلك ، كان سائق الكلاب يفرك قوائم (بك) لمدة نصف ساعة كل ليلة بعد العشاء ، ويضحي بنهايات صنادله الخاصة ليصنع أربعة صنادل لـ(بك) . وكان هذا علاجاً عظيماً ، وقد جعل (بك) حتى الوجه الجاف لبيرو يلتوي في تكشيرة ذات صباح ، عندما نسي فرانسوا الصنادل قتمدد (بك) على ظهره ، وقوائمه الأربع تلوح متوسلة في الهواء ، ورفض أن يتزحزح من دونها . وأخيراً تصلبت رجله بالنسبة للطريق ، فأطيح بجهاز الأرجل المهترئ بعيداً .

عند ال(بيلي) ذات صباح ، فيما كانوا يسرجون ، جنت (دولي) - التي لم يسبق أن جلبت حولها الشك في أي شيء - فجأة . وقد أعلنت عن حالتها بعواء ذنبى طويل يحطم القلب جعلت كل كلب يتخشب خوفاً ، ثم قفزت

باستقامة تريد (بك) . لم يسبق له قط أن رأى كلباً ينسعر ، كما أنه لم يكن لديه سبب قط ليخشى السعار ، ومع ذلك فقد كان يعرف أن ثمة رعباً هنا ، فهرب منه مفزوعاً . مستقيماً راح يتسابق ، ودولي - اللاهثة المزبدة - وراءه بخطوة واحدة ، وليس بمقدورها أن تلحق به ، فكان رعبه عظيماً ، ولم يكن بمقدوره أن يتركها تلحق به ، فكان سعارها عظيماً . غاص (بك) عبر الصدر المشجر للجزيرة ، وطار هابطاً إلى النهاية الدنيا ، وعبر قنلاً مملوءاً بالثلج الخشن إلى جزيرة أخرى ، وبلغ جزيرة ثالثة ثم انحنى عائداً إلى النهر الرئيسي ، وفي يأس راح يعبره . وطوال الوقت ، ومع أنه لم ينظر خلفه ، كان يصل إلى مسامعه هريرها وراءه بنطة واحدة لا غير . ناداه فرانسوا على بعد ربع ميل فانطوى عائداً ، ما يزال متقدماً بنطة واحدة فقط ، لاهثاً بألم من أجل الهواء وواضعاً كل ثقته في أن فرانسوا سيخلصه . أمسك سائق الكلاب الفأس منصوبة في يده ، وما أن انطلق (بك) عابراً إياه حتى انسحقت الفأس هابطة فوق رأس دولي المجنون .

ترنح (بك) على الزلاجة ، مرهقاً ، منتحباً كي يلتقط نفساً ، يائساً . كانت هذه فرصة سبتز . قفز على (بك) ، ومرتين غاصت أنيابه في خصمه اللا مقاوم ، ونهشت ومزقت اللحم حتى العظم . ثم هبط سوط فرانسوا ، وحصل (بك) على الرضا لرؤية سبتز ينال أسوأ جلد تلقاه أي من أفراد الفريق حتى ذلك الحين . وعلق بيرو :

- « شيطان ، هذا السبتز . ذات يوم لعين سوف يقتل بك ذاك » . فكان تعقيب فرانسوا :

- « ذلك (بك) شيطانان . طول الوقت أنا أراقب ذلك البك أعرف ذلك مؤكداً .

اسمع : في يوم بديع لعين سيصاب بالسعار مثل جحيم وحينذاك سوف

يعلك ذلك السبتر كله ثم ييصقه لافظاً إياه على الجليد . مؤكد . أنا أعرف » .
منذ ذلك الوقت ، كانت حرب بينهما . كان سبتز ، بوصفه الكلب
القائد والسيد المعترف به للفريق ، يحس تفوقه مهدداً من قبل كلب الجنوب
الغريب هذا . وكان (بك) غريباً بالنسبة له ، لأنه من بين كلاب الجنوب
العديدة التي سبق أن عرفها ، لم يبد أي واحد منها أية جدارة ، سواء في
المخيم أو على الطريق . كانت جميعها ناعمة جداً ، تموت من الكد أو الصقيع
أو الجوع . وكان (بك) هو الاستثناء ، وحده تحمل وثماً ، موازياً الهوسكي قوة
وتوحشاً وحذاقاً . ثم انه كان كلباً سيّداً ، وما جعله خطراً هو حقيقة أن هراوة
الرجل ذي البلوزة الحمراء قد طردت منه كل الشجاعة العمياء واندفاع الرغبة
في التسيد . كان حذاقاً فائقاً ، وكان بمقدوره أن ينتظر حلول وقته بصبر لم
يكن ليقل بشيء عن البدائية .

كان حتمياً أن يأتي النزاع من أجل القيادة . كان (بك) يريد لها . أرادها
لأنها كانت طبيعته ، لأنه كان قد تشبث بشدة بذلك الفخر الذي لا يفهم ،
الذي لا اسم له ، فخر الطريق والعنان - ذلك الفخر الذي يملك الكلاب في
الكد حتى اللهثة الأخيرة ، الكد الذي يجعلها تموت مبهجة في أعتنتها وتحطم
قلوبها إن هي فكت سرورها . كان هذا هو فخر ديف بوصفه كلباً دواراً ،
فخر سول ليكس فيما كان يجبر بكل قوته ، الفخر الذي تملكهم عند تفكيك
المخيم ، محولاً إياهم من وحوش غاضبة وجافية إلى مخلوقات كادة كادحة ،
متلهفة ، طموح ، الفخر الذي كان ينخسهم طوال النهار ويسقطهم في حفرة
المخيم ليلاً ، تاركاً إياهم يسقطون متداعين في لا راحة ولا رضا كنيين . كان
هذا هو الفخر الذي دعم سبتز وجعله يهزم تماماً كلاب الزلاجة التي كانت
تحرن وتملص من الأعنة ، أو كانت تختفي وقت السراجة صباحاً . وكذلك
كان هذا هو الفخر الذي جعله يخشى (بك) بوصفه كلب قيادة محتملاً .

وكان هذا هو فخر (بك) ، أيضاً .

كان ، بصراحة ، يهدد قيادة الآخر . وقف بينه وبين المتهربين الذين كان عليه أن يعاقبهم . وقد فعل ذلك عمداً . ذات ليلة ، كان الثلج يسقط ثقيلًا ، وفي الصباح لم يظهر بايك ، المتمارض . كان مختفياً بشكل أمين في عشه تحت قدم من الجليد . ناداه فرانسوا وبحث عنه دون جدوى . وجن سبتز غضباً ، انفلت عبر المخيم ، متشمماً وحافراً في كل مكان محتمل ، هاراً بشكل مخيف للغاية بحيث أن بايك سمعه فراح يرتجف في مخبئه .

ولكن ، عندما كشفت عنه الأرض أخيراً ، طار سبتز نحوه كي يعاقبه ، طار (بك) ، في غضب مماثل ، ليقف بينهما . وكان ذلك لا متوقفاً جداً ، وجرى بصورة شريرة جداً ، بحيث أن سبتز اندفع متراجعاً مختل التوازن . انخلع فؤاد بايك ، الذي كان يرتجف بوضاعة لهذا التمرد المكشوف ، قفز هاجماً على زعيمه المخلوع . وقفز (بك) - الذي صار اللعب التزيه قانوناً منسياً بالنسبة له - هاجماً هو الآخر على سبتز . ولكن فرانسوا ، الذي ضحك مع نفسه لهذه الحادثة لم يتوان في فرض العدل ، وأنزل سوطه على (بك) بكل قوته . فشل هذا في إبعاد (بك) عن خصمه الملتصق بالأرض خنوعاً ، فأدخل طرف السوط ليشارك في اللعبة . نصف مذهول من الضربة ، تطوح (بك) إلى وراء وسقط السوط فوقه مرة أخرى وأخرى ، في حين عاقب سبتز بايك الذي تجاوز عدة مرات .

في الأيام التي تلت ، فيما كانت داوسون تقترب ، كان (بك) لا يزال يتدخل بين سبتز ومن يتعرضون للعقاب ، ولكنه كان يفعل ذلك بحذق ، حين لم يكن فرانسوا هناك . بصوت (بك) الخفي ، قفز وتزايد اللا خضوع العام . لم يتأثر ديف وسول ليكس ، ولكن بقية الفريق انحدر من سيئ إلى أسوأ . لم تعد الأمور تجري على نحو صحيح . كان ثمة تصارع وتشاجر دائمين .

كانت المشاكل دائماً وشيكة ، وفي أساسها كان يوجد (بك) . كان يبقي فرانسوا مشغولاً ، لأن سائق الكلاب كان في خوف دائم من صراع الحياة والموت بين الاثنين ، وكان يعرف أنه لا بد واقع إن عاجلاً وإن آجلاً . وفي أكثر من ليلة كانت أصوات الشجار والصراع بين الكلاب الأخرى تضطره إلى خلع روب منامه . لخشيته من أن يكون (بك) وسبتر وراء ذلك .

ولكن الفرصة لم تتح ، فانساقوا إلى داوسون ذات عصر كئيب والنزاع العظيم لما يقع ، هنا كان رجال كثر ، وكلاب لا تعد ، وقد وجدهم (بك) يعملون جميعاً . كان يبدو أن النظام المعين للأشياء هو أن تعمل الكلاب . طوال النهار كانت تتمخطر صاعدة الشارع الرئيس وهابطة إياه في فرق طويلة ، وفي الليل كانت أجراسها القارعة لا تزال تصوت . كانت تجر جذوع الأكواخ وخشب الوقود ، تنقل الأحمال إلى المناجم ، وتقوم بكل أنواع الأعمال التي كانت الخيل تؤديها في وادي سانتا كلارا . وهنا وهناك كان (بك) يلتقي كلاباً جنوبية ولكنها على العموم كانت من سلالة الهوسكي الذنبية المتوحشة . وفي كل ليلة ، بانتظام ، في الساعة التاسعة ، وفي الثانية عشرة ، وفي الثالثة . كانت ترفع أغنية ليلية ، شجو أشباح غريباً ومخيفاً ، كان يسر (بك) أن يشارك فيه .

بإطالة الفجر الشمالي الملتهبة ببرود فوق الرؤوس ، أو بالنجوم المتقافزة في رقصة الصقيع ، والأرض خدرة ومتجمدة تحت معطفها الجليدي السميك ، ربما كانت أغنية الهوسكيات هذه ستصير تحدي الحياة ، كل ما هنالك أنها كانت تنطلق بمفتاح أصفر ، بانتحابات ممطوطة طويلاً . كانت تتوسل الحياة ، الكد الناطق للوجود . كانت أغنية قديمة قدم السلالة نفسها - إحدى أوائل الأغنيات للعالم الفتى ، في يوم صارت فيه الأغنيات حزينة . كانت ترجع صدى معاناة الأجيال التي لا تعد ، هذه الشكوى التي بها استثير

(بك) بشكل غريب . وعندما كان يشكو ويتحب ، كان يقوم بذلك عبر ألم العيش الذي كان منذ القديم ألم آبائه المتوحشين ، وخوف وغموض البرد والظلمة اللذين كانا لأولئك الآباء خوفاً وغموضاً . وأن يكون قد استثير بها فذلك ما كان إشارة إلى الاكتمال الذي به عاد عبر عصور النار والذرى إلى صف بدايات الحياة في عصور العواء .

بعد سبعة أيام من دخولهم داونس هبطوا الضفة المنحدرة بمحاذاة الـ(باراكس) إلى الـ(يوكون تريل) ، واتجهوا نحو الـديا و(سولت ووتر) . كان بيرو يأخذ منها رسائل لا تقل أهمية عن تلك التي يجلبها إليها ، وكذلك ، فقد قللكه فخر السفر فنوى أن يقوم بسفرة العام القياسية . كانت لصالحه في هذا الشأن عدة أشياء . كان أسبوع الراحة قد أعاد للكلاب صحتها ووضعها في نظام شامل . وكان الطريق الذي شقوه إلى داخل البلاد قد تصلب بفعل السفرات اللاحقة . وإضافة إلى ذلك ، كان رجال الشرطة قد أعدوا ، في مكانين أو ثلاثة ، مواقع لطعام الكلاب والرجال ، فكان السفر خفيفاً .

بلغوا (سكستي مايل) ، التي هي عبارة عن وثبة ستين ميلاً ، في اليوم الأول ، ووجدهم اليوم الثاني وهم يخفون سراعاً عبر الـ(يوكون) بشكل جيد في طريقهم إلى (بيلي) . ولكن مثل هذا الجرس الرانع لم يتحقق من دون كبير إزعاج وإقلاق لفرانسوا . كان التمرد الخفي الذي يقوده (بك) قد حطم تضامن الفريق . لم يعد وكأنه كلب واحد ينط في الأعنة . كان التشجيع الذي أولاه (بك) للمتمردين قد أدى بهم إلى كل أنواع الجنح الصغيرة . لم يعد سبتز قائداً يخشى كثيراً . لقد ذهبت المهابة القديمة ، وتساووا جميعاً في تحدي سلطته . سرق منه بايك ، ذات ليلة ، نصف سمكة وابتلعها تحت حماية (بك) . وفي ليلة أخرى قاتل دوب وجو سبتز وجعلاه يتغاضى عن العقاب الذي يستحقانه . وحتى بيلي ، ذي الطبع الطيب ، صار أقل طيبة ، وصار يئن

بأقل من نصف هدوء ما كان ينن في الأيام الخوالي . ولم يقترب (بك) من سبتز قط بدون أن يهر ويشد جسمه مهدداً . وفي الحقيقة . كان سلوكه يقارب سلوك قاتل مأجور ، وقد اعتاد أن يتبخر صاعداً نازلاً أمام أنف سبتز ذاته .

وقد أثر انهيار الانضباط ، بنفس الشكل ، على علاقة الكلاب أحدهم بالآخر ، صاروا يتشاجرون ويتنازعون أكثر من السابق فيما بينهم ، حتى كان المخيم يصير في بعض الأحيان دار مجانيين نابحة عاوية . لم يتغير ديف وسول ليكس وحدهما ، مع أنهما كانا يشتراران بالعراك الذي لا ينتهي . وأقسم فرانسوا أيماناً بربرية غريبة ، ورفس الجليد هارساً إياه في سعار خائب ، ومزق شعره . كان كرباجه يغني دوماً بين الكلاب ، ولكنه كان قليل الجدوى . ما إن كان ظهره يدار حتى كانوا يعودون لمشاكساتهم ثانية . وقد ساند سبتز بسوطه ، في حين ساند (بك) بقية الفريق . كان فرانسوا يعرف أنه وراء كل المشاكل ، وكان (بك) يعرف أنه يعرف ، ولكن (بك) كان أشطر كثيراً جداً من أن يقبض عليه متلبساً ، أبداً . كان يعمل بإخلاص في عنائه ، لأن الكد كان قد صار بهجة له ، ومع ذلك فقد كانت بهجة أشد خفاءً من أن تعجل بقتال بين زملائه وتشابك للأعنة .

عند مدخل (تاهكينا) ، ذات ليلة بعد العشاء ، طارد دوب أرنباً متزلجاً ، على نحو أخرق ، فأخطأه . خلال ثانية واحدة صار الفريق كله في سراج كامل . على بعد مائة ياردة كان يقوم مخيم شرطة الشمال الغربي ، ولديهم خمسون كلباً ، جميعها من فصيلة الهوسكي . انضمت جميعاً للمطاردة . أسرع الأرنب نازلاً النهر ، واستدار ليدخل ساقية صغيرة ، صاعداً الحوض المتجمد الذي كانت تحوطه بانتظام . ركض بخفة فوق السطح الجليدي ، في حين راحت الكلاب تحرثه بفعل القوة الرئيسية . وقاد (بك)

القطيع ، المكون من ستين كلباً قوياً ، حول منحنى بعد منحنى ، ولكن لم يتمكن من اللحاق . امتد خفيفاً للسباق ، مهمهماً بلهفة ، وجسده الرائع يومض إلى أمام ، قفزة قفزة ، في ضوء القمر الأبيض الشاحب ، وقفزة قفزة ، مثل شبح ضبابي شاحب ما ، كان الأرنب المتزلج يومض متقدماً .

كل هيجان الغرائز القديمة ذاك ، الذي يبعد الرجال - في فترات محددة - عن المدن الصاخبة ، إلى الغاب والسهل ، ليقتلوا الأشياء بكرات رصاصية يتم نفثها كيماوياً ، شهوة الدم ، متعة القتل ، كل ذلك كان ملك (بك) ، كل ما هنالك ان ذلك كان أكثر حميمية بما لا يقاس . كان يحتل مكان الصدارة أمام القطيع ، راکضاً لينزل الشيء الوحشي إلى أسفل ، اللحم الحي ، ليقتل بأسنانه هو ويغسل بوزه حتى العينين بدم دافئ .

ثمة شبق يؤشر إلى قيمة الحياة ، ووراءه لا يمكن أن تقوم حياة . هكذا هو نقيض العيش . ويجيء هذا الشبق عندما يكون المرء أكثر ما يكون حياة . هذا الشبق ، نسيان العيش هذا ، يجيء إلى الفنان ، الممسوك من نفسه وخارجها بحبل من لهب ، ويجيء إلى الجندي ، المجنون بالحرب على حقل مضروب والذي يرفض عفو العدو المنتصر ، وقد جاء إلى (بك) ، وهو يقود القطيع ، مطلقاً صرخة الذئب القديمة ، جاهدًا وراء اطعام الذي كان حياً والذي كان يفر بخفة أمامه عبر ضوء القمر . كان يردد صوت أعماق طبيعته ، وتلك الأجزاء من طبيعته التي كانت أعمق منه ، إذ تمند إلى رحم الزمن . كان يتسيد عليه نبض الحياة الأجرد العارم ، موجة الوجود المدتية ، المتعة الكاملة لكل عضلة منفصلة ، لكل مفصل منفصل ، وغضروف في كل ما هو غير الموت ، كل ما هو مشع وعارم ، يتجلى في الحركة ، طائراً يقفز مرحاً تحت النجوم وعلى وجه الشيء الميت الذي لم يتحرك .

ولكن سبتز ، الذي كان بارداً ومواظباً على الحساب حتى في أوج

مزاجه ، ترك القطيع وتوغل في رقبة ضيقة من الأرض حيث يقوم الجدول بانحناء طويلة حولها . لم يكن (بك) يعرف بهذا ، وفيما التف حول المنحنى ، وإذ كان التمثال الجليدي للأرنب لا يزال يرق أمامه ، رأى تمثال جليد آخر وأكبر ينط من الضفة المرتفعة إلى الممر المباشر للأرنب ، كان ذلك سبتز . لم يستطع الأرنب أن يلتفت ، وفيما قضمت الأسنان البيضاء ظهره في الهواء ، زعق بأعلى ما يمكن أن يزعق رجل مصاب . عند سماع هذا ، نداء الحياة المنحدر من ذروة الحياة في قبضة الموت ، رفع كل القطيع في أعقاب (بك) كورس ابتهاج جحيمياً .

لم يصرخ (بك) . لم يقيد نفسه ، وإنما حمل على سبتز ، كتفاً لكتف ، متصلباً جداً بحيث أنه أخطأ الحنجرة . تدرجاً وتدرجاً على الجليد المسحوق . سرعان ما انتصب سبتز على قدميه كما لو أنه - تقريباً - لم يتداع ، ناهشاً (بك) من الكتف إلى أسفل وقافزاً يبتعد . انطبق فكاه مرتين ، مثل فكي مصيدة فولاذيين ، فيما تراجع مبتعداً ليحصل على نقطة وثوب أفضل ، بشفتين نحيلتين ومرفوعتين كانتا تلتويان وتشبكان .

في ومضة عرف (بك) الأمر . لقد حان الوقت . كان ذلك حتى الموت . وفيما استدارا ملتفين ، هارّين ، أذانهما إلى وراء ، مراقبين بحدة يتحيان القرص ، عاد المشهد إلى (بك) محملاً بإحساس من الإلفة . بدا أنه يتذكر الأمر كله - الغابات البيضاء ، الأرض ، ضوء القمر ، وانفعال المعركة . وفوق البياض والصمت خيم هدوء شجي . لم تكن ثمة أخفى همسة هوا - لم يتحرك شيء ، لم ترتعش ورقة شجر - كانت الأنفاس المرئية للكلاب ترتفع ببطء وتتباطأ في الهواء المتجمد . كانوا قد تخلصوا بسرعة من الأرنب الزحاف ، هذه الكلاب التي كانت ذئاباً سيئة المؤالفة ، وها هي الآن قد أنجزت متجمعة في دائرة منتظمة . كانت صامتة هي الأخرى ، وعيونها لا

تفعل غير أن تشع وأنفاسها غير أن تتحرك ببطء إلى أعلى . بالنسبة لـ(بك) لم يكن أمراً جديداً ولا غريباً ، مشهد الأيام الخوالي ذاك . كان كما لو كان يجري دائماً ، الطريقة المألوفة للأمور .

كان سبتز مقاتلاً مجرباً ، من (سبتز بيرغن) عبر القطب ، وعبر كندا و(البارنز) ، كان قد تمرّس بكل حالات الكلاب وحقق التسيد عليها . كان غضبه مريراً ، ولكنه لم يكن معمياً قط ، في اندفاع لأن يمزق ويدمر ، لم ينس قط أن عدوه كان في اندفاع مشابه لأن يمزق ويحطم . لم يندفع قط حتى أنه كان مستعداً لتلقي اندفاع ، ولم يهاجم حتى ، كان يحمي أولاً ذلك الهجوم .

جهد (بك) دون جدوى أن يفرس أسنانه في عنق الكلب الأبيض الكبير . وحينما كانت أنيابه تضرب بحثاً عن اللحم الأطرى ، كانت تقابلها أنياب سبتز . قرع الناب الناب ، وكانت الشفاه متجرحة نازفة ، ولكن (بك) لم يتمكن أن ينفذ إلى تحوّلات عدوه . ثم حمي واحتوى سبتز في دوامة من الاندفاعات . مرة أخرى حاول التمكن من الحنجرة البيضاء كالثلج ، حيث كانت الحياة تترقق قريبة من السطح ، وفي كل مرة كان سبتز ينهش ويتخلص مبتعداً . ثم واصل (بك) الاندفاع - كما لو كان يستهدف الحنجرة . عندما أدار كتفه فجأة - وقد سحب رأسه إلى وراء منحنيّاً من الجانب - على كتف سبتز ، كنعجة يراود الإطاحة بها . ولكن بدلاً من ذلك ، كان كتف (بك) هو الذي ينهش كل مرة فيما كان سبتز ينط مبتعداً بخفة .

لم يتأثر سبتز ، في حين كان (بك) مخضلاً دماً ويلهث بمشقة . كان القتال يزداد يأساً ، وطوال الوقت كانت الدائرة الدنّبية والصامتة تنتظر الانتهاء كائنات من كان الكلب الذي يسقط . وفيما ازداد (بك) التفاتاً ، اتجه سبتز إلى الاندفاع ، فجعله يتعثر كي يبقى على قدميه . ما إن انقلب (بك) ،

حتى هبت كل دائرة الستين كلباً ، ولكنه سرعان ما استعاد وضعه ، في الهواء تقريباً ، ففاصت الدائرة مرة أخرى وراحت تنتظر .

ولكن (بك) كان يمتلك خاصية تعوض عن الضخامة : الخيال . كان يقاتل بالغريزة ، ولكن كان بمقدوره أن يقاتل برأسه أيضاً . اندفع ، كما لو كان يحاول اللجوء إلى حيلة الكتف القديمة ، ولكن في اللحظة الأخيرة اندفع منخفضاً يكنس الجليد ويغوص فيه . انطبقت أسنانه على قائمة سبتز الأمامية اليسرى . كانت ثمة طقطقة عظم منكسر ، فواجهه الكلب الأبيض بثلاثة قوائم . ثلاث مرات حاول أن يطيح به ، ثم كرر الحيلة فكسر القائمة الأمامية اليمنى . ورغم الألم واليأس ، كافح سبتز بجنون كي يبقى واقفاً . كان قد رأى الدائرة الصامتة ، ذات العيون المشعة ، والألسن المدلاة ، والأنفاس القضية المتصاعدة إلى أعلى ، تضيق حوله ، كما سبق له أن رأى دوائر أخرى تنضم على خصوم مهزومين في الماضي . كل ما هنالك أنه هو المهزوم هذه المرة .

لم يكن ثمة أمل له . كان (بك) لا يثني . كانت الرحمة شيئاً محفوظاً للأجواء الأكثر رقة . ناور من أجل الاندفاع الأخيرة . كانت الدائرة قد ضاقت حتى صار بمقدوره أن يحسن أنفاس كلاب الهوسكي حول أطرافه . كان بمقدوره أن يراها ، خلف سبتز وإلى كل من الجانبين ، نصف مقرصة استعداداً للوثوب ، وعيونها مثبتة عليه . بدا أن توقفاً سيحل . كان كل حيوان عديم الحركة كما لو أنه استحال حجراً . سبتز وحده ارتعش وانتصب فيما كان يتعثر إلى وراء وإلى أمام ، هاراً بتهديد مرعب ، كما لو ليخيف الموت الوشيك . ثم قفز (بك) إلى الداخل والخارج ، ولكن فيما كان داخلاً كانت كتف قد قابلت كتفاً ، مباشرة ، أخيراً . أصبحت الدائرة المعتمدة نقطة فوق الجليد المغطى بضوء القمر فيما اختفى سبتز عن الأنظار . وقف (بك) وتطلع إلى أمام ، البطل الناجح ، الوحش الأزلي المسيطر الذي حقق قتله ووجده جيداً .

٤- من كسب ليسود

- إيه ، ماذا أقول ؟ أنا أتكلم صدقاً عندما أقول (بك) ذاك شيطانان » .
كان ذلك خطاب فرانسوا في الصباح التالي عندما اكتشف سبتز ناقصاً
(بك) مغطى بالجراح . قاده إلى النار وأشار إلى الجروح على ضوء النار .
قال بيرو ، فيما كان يستطلع المزق والجروح الفاغرة :
- « وذلك سبتز يحارب كالجحيم » . فكان جواب فرانسوا :
- « وذلك (بك) يحارب مثل جحيمين . والآن سنوفر الوقت . لم يعد
هناك سبتز ، فليس هناك مزيد من مشاكل ، أكيد » .
فيما حزم بيرو معدات المخيم وشحن الزحافة ، انطلق سائق الكلاب
ليسرج الكلاب . خف (بك) إلى المكان الذي كان سيشغله سبتز ، ولكن
فرانسوا ، إذ لم يلاحظه ، جلب سول ليكس إلى المركز المرغوب بحرارة ، إذ
كان سول ليكس - حسب تقديره - أحسن كلب قائد مما تبقى . قفز (بك)
على سول ليكس في غضب مسعور ، دافعاً إياه إلى وراء وواقفاً في مكانه .
- « ايه ؟ ايه ؟ » ، صرخ فرانسوا ، وهو يصفع فخذه بانشرح .
- « انظر إلى ذاك (بك) . وهو يقتل ذاك سبتز ، هو يفكر أن يأخذ
العمل » ، ثم صرخ :
- « ابعد ، يا وقح ! » ، ولكن (بك) رفض أن يتزعزع .

امسك (بك) من نقرة العنق ، ومع أن الكلب هرّ مهدداً ، إلا أنه جرّه جانباً ووضع سول ليكس محله . لم يحب الكلب العجوز ذلك . وبين بوضوح أنه يخشى (بك) . كان فرانسوا عنيداً متعنتاً ، ولكن عندما أدار ظهره ، كان (بك) قد حل ثانية محل سول ليكس ، الذي لم يكن قط غير راغب في الانصراف . غضب فرانسوا ، فصرخ :

- الآن ، بحق الله ، سأعالجك! » ، وعاد وفي يده هراوة ثقيلة .

تذكر (بك) الرجل ذا البلوزة الحمراء ، فتراجع ببطء ، كما أنه لم يحاول أن يهجم عندما جيء بسول ليكس مرة أخرى إلى أمام . ولكنه أخذ يدور حوله خارج مدى الهراوة بالضبط ، هاراً بمرارة وغضب ، وفيما كان يدور راح يراقب الهراوة كما لو ليتخلص منها أو يرميها فرانسوا ، لأنه كان قد صار عاقلاً فيما يتعلق بالهراوة .

ذهب السائق ليعالج شؤونه ، ثم نادى (بك) ، عندما استعد ، ليضعه في مكانه القديم أمام ديف . تراجع (بك) خطوتين أو ثلاثاً . لاحقه فرانسوا ، مما جعله يتراجع أكثر . بعد وقت قصير من هذا ، رمى فرانسوا الهراوة جانباً ، معتقداً أن (بك) كان يخشى علقته . ولكن (بك) كان في تمرد صريح ، كان يريد - لا أن يتخلص من ضرب الهراوة ، بل - أن يحصل على القيادة . كانت له بفعل الحق . كان قد استحقها بجدارة ، وما كان ليرضى بأقل منها . اشترك بيرو . وجعلاه يركض بينهما ساعة تقريباً . رميا هراوات عليه . راوغ متخلصاً . شتماه ، وشتما آباءه وأمهاته من قبل ، وكل نسله الذي سيأتي بعده حتى أبعد جيل ، وكل شعرة على جسده وقطرة دم في عروقه ، فكان يرد على الشتيمة بالهدير ويبقى بعيداً عن منالهما . لم يحاول أن يهرب ، بل كان يتراجع حوله وحول المخيم ، معلناً بشكل مكشوف أنه ، عندما تتحقق رغبته ، سيعود ويصير صالحاً .

جلس فرانسوا وحك رأسه . ونظر بيرو إلى ساعته فأخذ يجدف . كان الوقت يلير . وكان يجب أن يكونوا على الطريق قبل ساعة . حك فرانسوا رأسه ثانية . حكه وكشر في خجل بوجه المراسل ، الذي هز كتفيه إشارة إلى أنهما قد فشلا . ثم ذهب فرانسوا إلى حيث كان يقف سول ليكس ، ونادى (بك) . ضحك (بك) ، كما تضحك الكلاب ، ومع ذلك بقي مبتعداً لحد ما . حل فرانسوا عنان سول ليكس وأعادته إلى مكانه الأول . كان الفريق يقف مسرّجاً إلى الزحافة في خط غير منفصم ، جاهزاً للطريق . لم يكن ثمة مكان لـ(بك) إلا في المقدمة . ومرة أخرى نادى فرانسوا ، ومرة أخرى ضحك (بك) وبقي بعيداً .

- « ارم الهراوة » ، أمر بيرو .

استجاب فرانسوا ، مما جعل (بك) يقترب مسرعاً ، ضاحكاً بانتصار ، واستدار إلى موقعه على رأس الفريق . كان عنانه قد ثبت ، والزحافة قد أخرجت من الثلج الذي تجمد عليها ، وإذا كان الرجلان قد بدأ يركضان فقد انطلقوا ليدخلوا طريق النهر .

كما سبق لسائق الكلاب أن قوم (بك) عالياً ، بشيطانين ، وجد أنه قد أنقص من قيمته - والنهار لا زال فتياً . بلمحة واحدة أخذ (بك) واجبات القيادة ، وحيثما كان الحكم مطلوباً ، وكذلك التفكير السريع والعمل السريع ، كان يعرض نفسه متفوقاً حتى على سبتز ، الذي لم يسبق لفرانسوا أن رأى ندأ له قط .

ولكن (بك) كان يتفوق في إصدار القانون وجعل زملائه ينفذونه . لم يبال ديف وسول ليكس بتبديل القيادة . لم يكن ذلك من شأنهما . كان واجبهما أن يكدا ، وأن يكدحا إلى حد كبير ، في الأعنة . وما دام ذلك لا تجري مقاطعته ، فإنهما ما كانا لبياليان بما يقع . كان يمكن لبيلي - الطيب -

أن يقود ، قدر تعلق الأمر بهما ، ما دام بمقدوره أن يحفظ النظام . وعلى كل حال ، فقد صار بقية أفراد الفريق صعبى المراس خلال أيام سبتز الأخيرة ، واشتدت دهشتهم عندما انطلق (بك) يعيدهم إلى وضعهم الطبيعي .

كان بايك ، الذي يجبر في أعقاب (بك) ، والذي لم يكن ليحمل ولا أوفصة واحدة على حزام الصدر أكثر مما كان مضطراً لأن يحمل ، كان يهتز بخفة وتكرار للكسل . وقبل أن يكون اليوم الأول قد انتهى ، فإنه كان يجبر أكثر مما سبق له أن جر في حياته . وفي الليلة الأولى بالمخيم ، عوقب جو ، الغاضب ، بقسوة - وذلك أمر لم ينجح سبتز في فعله قط . لقد كتم (بك) أنفاسه ، ببساطة ، بفضل تفوق الوزن ، وراح يجرحه حتى توقف عن النهش وبدأ يهتمهم طلباً للرحمة .

سرعان ما استعيد الإيقاع العام للفريق . استعاد تضامنه القديم ، وعادت الكلاب تنط جميعاً مثل كلب واحد في الأعنة . وعند (الرنك رابيدس) ، أضيف هوسكيان من المنطقة ، هما (تيك) و(كونا) ، إلى الفريق ، وكان الاحتفاء الذي به أدخلهما (بك) قد خطف أنفاس فرانسوا ، فصرخ :

- «أبدأ مثل هذا كلب (بك) ! لا ، أبدأ ، هو يستحق ألف دولار ، والله! آيه ، ماذا تقول يا بيرو ؟» .

فهز بيرو رأسه موافقاً . كان قد سبق الرقم القياسي للسرعة الآن ، وكان يكسب المزيد يوماً بعد يوم . كان الطريق في حال ممتازة ، جيد التماسك وصلباً ، ولم يكن ثمة ثلج حديث السقوط تنبغي مجاهدته . لم يكن الطقس شديد البرودة . وقد هبطت درجة الحرارة إلى خمسين تحت الصفر وبقيت عند هذا الحد طيلة السفرة . كان الرجلان أحدهما يركض و الآخر يركب بالتناوب ، وأبقيا الكلاب متحركة ، فيما عدا توقفات معدودة .

كان نهر الـ(ثرتي ماييل) مكسواً نسبياً بالجليد ، وقد اجتازوا في خروجهم ليوم واحد ما كان يستغرق منهم عشرة أيام في الدخول . وفي انطلاقة واحدة من أسفل بحيرة (ليبارج) إلى (وايت هورس رابيدس) . وعبر (مارش) و(تاغيش) و(بينيت) - على مبعده سبعين ميلاً من البحيرات - طاروا بسرعة فائقة بحيث أن الرجل الذي كانت نوبته في الركض قد قطر إلى الزحافة بطرف حبل . وفي الليلة الأخيرة من الأسبوع الثاني اجتازوا الـ(وايت باث) وهبطوا منحدر البحر جاعلين أضواء (سكاغواي) وأرصفة الموانئ تحت أقدامهم .

كان جرياً قياسياً . كل يوم من أربعة عشر يوماً قطعوا أربعين ميلاً في المعدل . وطيلة ثلاثة أيام كان بيرو وفرانسوا يوجهان الصدور إلى أعلى الشارع الرئيس لسكاغواي وأسفله ، وقد أمطرا بدعوات الشراب ، في حين صار الفريق المركز الدائم لحشد متعبد من محبي الكلاب وسواقها . ثم طاب لثلاثة رجال أشرار أو أربعة أن يسلبوا المدينة فثقبوا مثل علب البهارات جزاءً وفاقاً ، فأنحرف الاهتمام الشعبي إلى رموز أخرى . وبعدئذ جاءت أوامر رسمية . استدعى فرانسوا (بك) إليه ، ورمى ذراعيه حوله ، وبكى على فراقه . وكان ذلك آخر ما رآه من فرانسوا وبيرو . مثل غيرهما من الرجال ، خرجا من حياة (بك) إلى الأبد .

تولى اسكوتلندي خلاسي مسؤولية رفاقه ، وإلى جانب دزينة من فرق الكلاب الأخرى بدأ العودة فوق الطريق المتعب إلى داوسن . لم يكن الآن ركضاً هيناً ، ولا وقتاً قياسياً ، وإنما كدح شاق كل يوم ، ووراءه حمل ثقيل ، لأن هذه كانت قافلة البريد ، تحمل الكلمة من العالم إلى الرجال الذين كانوا يبحثون عن الذهب تحت ظلال القطب .

لم يحب (بك) ذلك ، ولكنه كان عوناً جيداً للعمل ، مفتخراً به على

طريقة ديف وسول ليكس ، ولأنه رأى رفاقه - سواء كانوا يفخرون بالعمل أم لا - يؤدون قسطهم . كانت حياة مملّة ، تمضي برتابة كرتابة الماكنة . كان كل يوم يشبه الآخر كثيراً ، ففي وقت معين من كل صباح كان الطهاة يخرجون وتقام النار ويجري تناول الفطور . ثم ، فيما كان البعض يفكون المخيم ، كان آخرون يسرجون الكلاب ، وكانوا يحلون على الطريق قبل أن يهبط الظلام ، بساعة أو نحوها ، الظلام الذي كان ينذر بحلول الفجر . وفي الليل ، كان يقام المخيم . كان بعضهم يقيم الطيات ، ويقطع غيرهم خشب الوقود وجذوع الصنوبر الغليظة لاعداد الأسرة ، في حين كان آخرون غيرهم يحملون الماء أو الثلج للطباخين . وكذلك ، كان يجري إطعام الكلاب . بالنسبة لها ، كان هذا العمل سمة اليوم الوحيدة ، مع أنه كان حسناً أن يتسكع الواحد ، بعد أكل السمك ، لمدة ساعة أو نحوها مع الكلاب الأخرى ، التي كان ثمة منها مائة وواحد . كان ثمة بينها مقاتلون صلبون ، ولكن ثلاث معارك مع أضرها حققت لـ(بك) السيد ، بحيث أنها - عندما كان ينتصب ويكشر عن أنيابه - كانت تبتعد عن طريقه .

أكثر من كل شيء ، ربما ، كان يحب أن يتمدد قريباً من النار ، وساقاه الخلفيتان مشنيتان تحته ، وساقاه الأماميتان ممدودتان إلى أمام ، والرأس مرفوع ، والعينان ترمشان حالمتين نحو اللهب . وأحياناً كان يفكر في بيت القاضي ميلر الفسيح في وادي سانتا كلارا الذي تقبله الشمس ، في حوض السباحة الخرساني ، في ايزابيل : الجرداء المكسيكية ، وتوتس : الـ(بغ)* اليابانية ، ولكنه كان يتذكر أكثر الرجل ذا البلوزة الحمراء ، موت كيرلي ، الصراع العظيم مع سبتز ، والأشياء الجيدة التي أكلها أو يود لو كان أكلها . لم يعان شعوراً بالحنين إلى الوطن . كان الـ(سانلاند) معتماً ويعيداً للغاية ،

* فصيلة كلاب صغيرة الحجم قصيرة الشعر ملوثة الذيل مغضنة الوجه خنساء الأنف .

ولم تكن لذكريات كهذه قوة عليه . وكانت أكثر قوة ذكريات وراثته التي تمنحه أشياء لم يسبق له أن رآها من قبل . ألفة واضحة ، والغرائز (التي لم تكن غير ذكريات أسلافه التي استحالت عادات) التي خبت في الأيام الأخيرة ، والتي - مع ذلك - تسارعت فيه وتجددت حياتها فيه .

أحياناً ، فيما كان يقعي هناك ، رامشاً حالمًا في اللهب ، كان يبدو أن اللهب ينبعث من نار أخرى ، وأنه - فيما كان يقعي عند هذه النار الأخرى - رأى رجلاً آخر يختلف عن الطباخ الخلاسي الذي كان أمامه . كان هذا الرجل الآخر أقصر ساقين وأطول ذراعين ، وله عضلات شريطية متتالية ومعقدة أكثر منها مدورة مكورة . كان شعر هذا الرجل طويلاً ومتشابكاً حد الحياكة ، وكان رأسه مائلاً إلى وراء تحت شعره من العينين . نطق أصواتاً غريبة ، وكان يبدو خائفاً جداً من الظلام ، الذي كان يتطلع فيه باستمرار ، ممسكاً في قبضته ، التي كانت تتعلق في منتصف الطريق بين ركبته وساقه ، بعضاً تحمل حجراً ثقيلاً مثبتاً في نهايتها . كان يكاد يكون عارياً ، والجلد الرث الذي لوحته النار يتدلى مفروقاً على ظهره ، ولكن على جسده كان ثمة شعر كثير . في أماكن معينة ، عبر الصدر والكتفين وأسفل ، خارج الذراعين والفخذين . كان ينحاك ليصير فراءً كثاً تقريباً . لم يكن يقف منتصباً ، ولكن بجذع ممال إلى أمام من الوركين ، على ساقين تنحنيان عند الركبتين . وحول جسده كانت ثمة مطاطية غريبة ، أو قابلية قفز غريبة ، تكاد تكون خاصة بالقطط ، وتيقظ سريع كتيقظ من يعيش في خوف دائم من الأشياء المرئية وغير المرئية .

في أوقات أخرى كان هذا الرجل يقعي عند النار ورأسه بين ساقيه فينام . وفي مثل هذه الحالات كان مرفقاه على ركبتيه ، ويده مضمومتان على رأسه كما لو ليمطر من الذراعين المشعرتين . ووراء تلك النار ، في الظلمة

المحيطة ، كان بمقدور (بك) أن يرى عدة جمرات مشعة ، اثنتين اثنتين ، دائماً اثنتين اثنتين ، كان يعرف أنها أعين وحوش كواسر عظيمة . وكان بمقدوره أن يسمع انسحاق أجسادها عبر الأجمة ، والأصوات التي كانت تحدثها في الليل . وإذا كان يحلم هناك عند ضفة الـ(يوكون) ، بعينين كسولتين ترمشان نحو النار ، كانت أصوات ومشاهد العالم الآخر هذه تجعل الشعر يقف على ظهره بطوله ويقف على أطرافه عبر كتفيه وفوق رقبتة ، إلى أن يهتمهم خفيضاً ومكتوماً ، أو ينبح بنعومة ، فيصرخ نحوه الطباخ الخلاسي : «هي ، أنت يا (بك) ، استيقظا» ، حيث كان العالم الآخر يتلاشى ويتجسد العالم الحقيقي لناظريه ، وعندئذ كان ينهض ويثاءب ويتمطى كما لو أنه كان نائماً .

كانت رحلة صعبة ، والبريد وراءهم ، والعمل الشاق يهرثهم . كانوا قد فقدوا الكثير من أوزانهم ، وغدوا في أردأ حال ، ثم وصلوا داوسن ، وكان لا بد لهم أن ينالوا استراحة أمدها عشرة أيام أو أسبوع على الأقل . ولكن خلال يومين هبطوا ضفة اليوكون من الـ(باراكس) ، محملين برسائل إلى الخارج . كانت الكلاب متعبة ، والسائقون يزمجرون ، ولكي تزداد الأمور سوءاً ، كانت السماء تثلج في كل يوم . كان هذا يعني طريقاً هشاً ، وجهداً أعظم على الراكضين ، وجراً أشق على الكلاب ، ومع ذلك كان السائقون منصفين أثناء الأمر كله ، وقد فعلوا خير ما يمكنهم للحيوانات .

كل ليلة ، كانت تجري العناية بالكلاب أولاً . كانت تأكل قبل أن يأكل السائقون ، وما كان أي رجل ليبحث عن رداء نومه قبل أن يكون قد انتهى من فحص أقدام الكلاب التي كان يقودها . ومع ذلك ، انهارت قواها . منذ بداية الشتاء كانت قد قطعت ألفاً وثمانمائة ميل ، ساحبة زلاجات على طول تلك المسافة المضنية . وإن ألفاً وثمانمائة ميل لتخبرك من الحياة عن أشقها .

تحميلها (بك) ، رافعاً معنويات زملائه إلى مستوى العمل ومحافظةً على الانضباط ، مع أنه هو نفسه كان متعباً جداً . كان بيلي يبكي ويهمهم بانتظام في نومه كل ليلة . وكان جو أشد مرارة منه في أي وقت ، أما سول ليكس فكان لا يطاق ، سواء من جانبه الأعمى أو من الجانب الآخر .

ولكن ديف هو الذي عانى أكثر الجميع . كان شيء مما يخصه قد أصابه الخطأ . كان قد صار أكثر همّاً واستعداداً للاستشارة ، وما أن كان المعسكر يقام حتى كان يصنع عشه ، حيث كان سائقه يطعمه ، ما أن كان يتحرر من السرج ، ويهبط ، حتى كان لا يقف على قدميه ثانية إلى وقت الاسراج في الصباح التالي . وفي بعض الأحيان ، في الأعنة ، عندما كان ينشمر بتوقف الزلاجة المفاجئ ، أو بالشد لتحريكها ، كان يبكي ألماً . كان السائق يفحصه ، ولكن لم يكن يتمكن من العثور على شيء . وقد اهتم كل السائقين بالحالة . كانوا يتحدثون عنها أوقات الطعام ، وعندما يدخلون آخر غلايينهم قبل الاخلاص إلى الفراش . ذات ليلة عقدوا جلسة استشارية ، جلب من عشه إلى النار ، وتم الضغط عليه وسبره حتى صرخ عدة مرات . كان شيء ما على غير وضعه في الداخل ، ولكن لم يكن بمقدورهم أن يشخصوا عظاماً مكسورة . لم يكن بمقدورهم أن يكتشفوا ذلك الشيء .

عندما تم بلوغ (كاسيار بار) ، كان من الضعف بحيث أنه كان يتداعى باستمرار على الأعنة . أوعز الاسكتلندي الخلاصي بالوقوف وأخرجه من الفريق ، رابطاً الكلب التالي ، سول ليكس ، إلى الزلاجة . كان قصده أن يريح (ديف) ، تاركاً إياه يركض خلف الزلاجة . ومع أن ديف كان مريضاً إلى ذلك الحد ، فقد استشم أنه يراد إخراجه ، فراح يعوي ويطحن أسنانه فيما كان يجري فك الأعنة ، ويهمهم بقلب كسير فيما يرى سول ليكس في المركز الذي طالما أحرزه وخدم فيه هو . لأن فخر الأعنة والطريق كان فخره ،

ورغم أنه كان مريضاً بحيث بلغ شفير الموت فإنه لم يتحمل أن يقوم كلب آخر بعمله .

عندما بدأت الزلاجة تتحرك ، تعثر زالقاً في الجليد الناعم على طول الطريق المخفوق ، مهاجماً سول ليكس بأسنانه ، مندفعاً ضده ومحاولاً أن يدفعه بعيداً إلى الجليد الناعم على الجانب الآخر ، مكافحاً أن يقفز إلى داخل أعنته وأن يصير بينه وبين الزلاجة ، وكان طوال الوقت ينن ويستجير ويصرخ بحزن وألم . حاول التخلص أن يبعده بالسوط ، ولكنه لم يبال بالجلد الموجه ، ولم يكن قلب الرجل ليطاوعه أن يضرب أشد . رفض ديف أن يجري بهدوء على الطريق وراء الزلاجة ، حيث كان المسير هيناً ، ولكنه واصل التخط على طول الجليد الناعم ، حيث كان المسير أشد ما يكون صعوبة ، حتى الاجهاد . ثم هوى ، وتمدد حيث هوى ، عاوياً بألم مرير فيما كان قطار الزلاجات الطويل يجتازه مضطرباً .

بالثمالة الأخيرة من قوته تمكن أن يتابعهم متعثراً حتى توقف القطار ثانية ، حيث تخبط عبر الزلاجات إلى زلاجه ، ووقف إلى جانب سول ليكس . تلكاً سائقه لحظة كي يهيئ النار لجليونه من الرجل الذي كان وراءه . ثم استدار وحرك كلابه . انسابت على الطريق بافتقار ملحوظ للاندفاع ، ولفتت رؤوسها بعسر ، ثم توقفت مندهشة . كان السائق مندهشاً أيضاً ؛ لم تتحرك الزلاجة . نادى على رفاقه كي يشهدوا المنظر ، كان ديف قد عض على عناني سول ليكس الاثنين ، وكان يقف مباشرة أمام الزلاجة في مكانه الخاص .

توسل بعينيه أن يبقى هناك . تحير السائق . تحدث رفاقه عن كيفية تحطيم الكلب لقلبه حين يحرم من العمل الذي يقتله ، وتذكروا أمثلة كانوا يعرفونها ، عن كلاب ماتت - بعد إذ هرمت بحيث لم تكن تقوى على

الكد ، أو أصيبت فلم تعد تقوى عليه - لأنها حلت من الأعنة ، وكذلك ، فقد اعتبروا أن من الشفقة - ما دام ديف سيموت على أية حال - أن يموت في الأعنة ، رضي القلب قائماً . وهكذا ، فقد أسرج ثانية ، ويفخر راح يجبر كما في السابق ، مع أنه بكى أكثر من مرة ، دون إرادة ، من غصة ألمه الباطني . وتهاوى عدة مرات وراح يجبر في الأعنة ، وذات مرة داسته الزلاجة ، بحيث صار يعرج بعد ذلك من إحدى ساقيه .

ولكنه تماسك حتى تم بلوغ المخيم ، حيث أعد له سائقه مكاناً قرب النار . طلع عليه الصباح فوجده السائق أضعف من أن يسافر . وعند حلول وقت الإسراج حاول أن يزحف إلى سائقه . وبجهود مضنية نهض على قوائمه ، تعثر ثم هوى . ثم زحف كالدودة إلى أمام ببطء إلى حيث كانت معدات السراجة توضع على زملائه . كان يقدم قائمتيه الأماميتين ويسحب بدنه بنوع من الحركة المتقطعة ، حيث كان يقدم قائمتيه الأماميتين وينط قدماً مرة أخرى لمزيد من البوصات . تخلت عنه قواه ، وآخر ما رأى منه زملاؤه كونه ممدداً فاغراً فاه على الثلج يصرخ نحوهم بحزن . ولكن بقي بمقدورهم أن يسمعه يعوي بأسى حتى أصبحوا خارج مدى البصر وراء حزام من خشب النهر .

هنا توقف القطار . وعاد الاسكتلندي الخلاسي أدراجه ببطء إلى المعسكر الذي تركوه . كف الرجال عن الكلام . دوت إطلاقه مسدس . عاد الرجل مسرعاً . فرقت السياط ، وخشخششت الأحزمة بابتهاج ، واهتزت الزلاجات على طول الطريق ، ولكن (بك) عرف ، وعرف كل كلب ، ما جرى خلف نطاق الأشجار النهرية .

٥- كد العناء والطريق

بعد ثلاثين يوماً من مغادرة بريد (سلة واطر) لداوسن ، وفي مقدمته (بك) وزملاؤه ، وصل إلى سكاغواي . كانت القافلة في أسوأ حال ، ممزقة رثة نال منها البلى أي منال . وقد تضاءلت أربطال (بك) المائة والأربعون إلى مائة وخمسة عشر . وكان بقية زملائه ، مع أنهم كانوا كلاباً أخف وزناً ، قد فقدوا وزناً أكثر منه نسبياً . فبايك ، المتمارض ، الذي غالباً ما لفق بنجاح - أثناء حياته المخادعة - ساقا موجعة ، كان الآن يعرج بلهفة . وكان (سول ليكس) يعرج ، ودوب يعاني من عظم كتف مرضوض .

كانوا جميعاً يعانون من تقرح الأقدام . لم تبق فيهم إمكانية قفزة أو خفقة . كانت أقدامهم تساقط بتثاقل على الطريق ، شالة أبدانهم ومضاعفة إجهاد يوم كامل . لم يكن بهم شيء غير أنهم كانوا متعبين حتى الموت . لم يكن التعب المميت الذي يتأتى عبر الجهد المختصر والفائق ، والذي يكون الشفاء منه مسألة ساعات ، ولكنه كان التعب المميت الذي يتأتى عبر النزف البطيء والمتطاوّل للقوة ، والذي يجري طيلة شهور من الكد . لم تكن ثمة قوة معافاة قد تبقت ، ولا قوة احتياطية تستدعى . فقد استعملت كلها ، آخر ثمالة متخلفة منها - كانت كل عضلة ، كل نسيج حي ، كل خلية ، متعبة ، متعبة حتى الموت . وكان لذلك ما يبرره . ففي أقل من خمسة أشهر كانوا قد

سافروا ألفين وخمسمائة ميل ، لم يستريحوا - أثناء الألف والثمانئة ميل الأخيرة منها - أكثر من خمسة أيام . وعندما بلغوا سكاغواي ، كان واضحاً أنهم في الرmq الأخير . كانوا بالكاد يبقون على الأعنة مشدودة ، وعلى الطرق المنحدرة كانوا بالكاد يتمكنون من الابتعاد عن طريق الزلاجة .

- «تقدمي ، أيتها الأقدام المسكينة الموجهة» . هكذا كان السائق يشجعهم فيما كانوا يتعشرون هابطين شارع سكاغواي الرئيس .

- «هذا هو الأخير . ثم سننال راحة واحدة طويلة . ها ؟ مؤكد . راحة طويلة فاخرة» .

كان السائقون يتوقعون - بثقة - توقفاً طويلاً . فهم أنفسهم قطعوا ألفاً ومائتي ميل دون أن يستريحوا أكثر من يومين ، وبحكم العقل والإنصاف كانوا يستحقون توقفاً متطاول الأمد . ولكن الرجال الذين اندفعوا إلى الكلوندايك كانوا من الكثرة ، وكانت الحبيبات والزوجات والأقارب اللاتي ، والذين ، لم يندفعن ، أو يندفعوا ، من الكثرة بحيث أن البريد المحشور كان يكتسب أبعاداً عملاقة . وكذلك فقد كانت ثمة أوامر رسمية . كانت وجبات طازجة من كلاب خليج هدسون قد جبيء بها كي تحل محل الكلاب التي لم تكن جديرة بالأعنة . كان المقرر أن يتم التخلص من غير اللانقة ، وبما أن الكلاب كانت أقل قيمة من الدولارات ، فقد كان المفروض أن تباع .

مرت ثلاثة أيام ، اكتشف (بك) وزملاؤه أثناءها كم كانوا متعبين وضعفاء حقاً . ثم ، في صباح اليوم الرابع ، جاء رجلان من الولايات المتحدة واشترياهما ، بسرجهما ، لقاء ثمن بخس . كان الرجلان يخاطبان بعضهما بـ(هال) و(تشارلز) . كان تشارلز في منتصف العمر ، خفيف اللون ، له عينان ضعيفتان دامتان وشاربان معقوفان بقوة وحيوية إلى أعلى ، مضيفاً مظهراً كاذباً على الشفة المتهدلة بارتخاء ، التي كان يخفيها . وكان هال فتى

في التاسعة عشرة أو العشرين ، يحمل مسدس (كولت) كبيراً وسكين صيادين في نطاق يلعب مما يحمل من إطلاقات . كان هذا النطاق الشيء الأكثر بروزاً فيه : كان يعلن عن فجاجته ولا خبرته ، فجاجة خالصة لا تصدق . كان واضحاً جداً أن الرجلين في غير مكانهما ، وأن قيام رجلين مثلهما بالمغامرة في الشمال جزء من غموض الأشياء التي تمر دون أن يفهمها أحد .

سمع (بك) المساومة ، ورأى المال ينتقل بين الرجل ووكيل الحكومة ، فعرف أن الاسكتلندي الخلاسي وسواق قطار البريد كانوا يخرجون من حياته في أعقاب بيرو وفرانسوا والآخرين الذين رحلوا من قبل . وعندما سيق مع زملائه إلى مخيم المالكين الجدد ، رأى (بك) شأناً فوضوياً ولا يدل على أدنى عناية ، خيمة نصف منصوبة ، صحنواً غير مغسولة ، كل شيء في فوضى ، وكذلك فقد رأى امرأة . كان الرجلان يسميانها (مرسيدس) ، كانت زوجة تشارلز وأخت هال - جماعة عائلية لطيفة .

راقبهم (بك) بتفهم عندما شرعوا يفكون الخيمة ويحملون الزلاجة . كانت حالهم توحى بأن ثمة الكثير من الجهد الذي ينبغي صرفه ، ولكنها لم تكن توحى قط بما يشبه العمل ، تم طي الخيمة في رزمة خرقاء أكبر مما ينبغي بثلاث مرات . وتم رزم أطباق الصفيح دون غسيل . وكانت ميرسدس تتحرك متحشرة باستمرار في طريق الرجلين فيما استمرت في ثرثرة لا نهاية لها ، هداية ونصحاً ، فعندما وضعوا كيس ثياب على مقدمة الزلاجة ، اقترحت أن ينقل إلى المؤخرة ، وعندما وضعوا على المؤخرة ، وغطياه برزمتين أخريين . اكتشفت أشياء منسية ما كان ليسعها مكان آخر غير ذلك الكيس ، فأنزلاه ثانية .

خرج ثلاثة رجال من خيمة مجاورة وتطلعوا ، مكشرين ، وأحدهم يغمز للآخر . ثم قال أحدهم :

- « إن لديكم حملاً جميلاً تماماً كما هو . ولست أنا من يقول لكم ما

تفعلون ، ولكنني ما كنت لأهتم بتلك الخيمة لو كنت مكانكم » ، فصرخت
مرسيدس ، وهي ترمي يديها في خوف ظاهر :

- « أمر لا يحلم به أحداً كيف يمكنني أن أتدبر أموري من دون
خيمة ؟ » ، فأجاب الرجل :

- « الوقت ربيع ، ولن تصادفي مزيداً من الجو البارد » . فهزت رأسها
بتصميم ، وضع تشارلز وهال آخر الأمتعة والخردوات فوق جبل الحمل .
تساءل أحد الرجال :

- « هل تظن أنها يمكن جرها ؟ » . فتساءل تشارلز باقتضاب نوعاً ما :

- « ولم لا ؟ » ، فأسرع الرجل يقول بلطف :

- « أوه ، إنه حسن . حسن . كنت أتساءل فقط ، هذا كل ما هناك .
يبدو لي أنها أثقل شيء في العالم » . أدار تشارلز ظهره وشد الحبل إلى
أسفل بأحسن ما استطاع ، الأمر الذي لم يكن حسناً قط . وأكد ثان من
الرجال :

- « وتستطيع الكلاب بالتأكيد أن تسير طول النهار ووراءها ذلك المتاع
الضئيل » .

فقال هال ، بأدب يبعث على الانجمام :

- « بالتأكيد » ، وأمسك بيده عصا التوازن ، ولوح بسوطه بالأخرى ،
صارخاً :

- « تقدموا! تقدموا! يا أنتم! » .

قفزت الكلاب تشد الأعنة ، وأجهدت نفوسها بضع ثوان ، ثم ارتخت .
لم تكن قادرة على تحريك الزلاجة ، فصرخ . وهو يستعد لجلدها بالسوط :

- « الوحوش الكسلى . سأريها » .

ولكن مرسيدس تدخلت ، باكية :

- «أوه . هال ، لا بينغي» ، ثم - وهي تمسك بالسوط وتشدّه منه :
- «الأعزاء المساكين! والآن ، يجب أن تعد بأنك لن تكون فظاً معها لما
تبقى من الرحلة ، وإلا فإنني لن أتقدم خطوة» ، فعنفها أخوها :
- «يا للكمية الغالية التي تعرفينها عن الكلاب! وإنني لأتمنى أن
تتركيني وشأني . إنها كسلى ، فاعلمي ذلك ، عليك أن تسوطيها لتحصلي
منها على أي شيء . تلك طريققتها . اسألي أياً كان . اسألي أحد هؤلاء
الرجال .»

نظرت مرسيدس إليهم مستطلعة ، وقد كتب على وجهها الجميل بغض
لا يوصف لمراى الألم .

وجاء الجواب من أحد الرجال :
- «إنها ضعيفة كالماء ، إن أردت أن تعرف ، المساكين مجهدة ، تلك
هي القضية . إنها بحاجة إلى الراحة» . فقال هال ، بشفتيه اللا ملتحييتين :
- «لتنمصح الراحة» ، فصاحت مرسيدس :
- «أوه» ، متألّة وآسفة من الشتيمة .
ولكنها كانت مخلوقة ذات روح عشائرية ، فاندفعت للتو لحماية
أخيها ، قائلة على نحو ذي مغزى :
- «لا تبال بذلك الرجل . ، إنك تسوق كلابنا ولك أن تفعل ما تراه
الأفضل معها» .

مرة أخرى وقع سوط هال على الكلاب . فرمت أنفسها باتجاه الأعنة ،
وحفرت بقوائمها الجليد المتراكم ، هبطت نحوه ، وعرضت كل قواها .
تماسكت الزلاجة كما لو أنها كانت مرسة . وبعد محاولتين وقفت الكلاب
ساكنة لاهثة . كان السوط يصفر بوحشية ، عندما تدخلت مرسيدس مرة
أخرى . سقطت على ركبتها أمام (بك) ، والدموع في عينيها ، وطوقته
بذراعيها ، باكية بتعاطف :

- «أيها الأعزاء المساكين . لم لا تسحبون أشد ؟ - وعندئذ لن

تساطوا» . لم يعجبها (بك) ، ولكنه كان من التعاسة بحيث ما كان ليقاومها ،
معتبراً ذلك جزءاً من عمل النهار التعتيس .
وتكلم أحد المتفرجين الآن ، بعد أن كان يصصر أسنانه ليمنع الكلام
الساخن ؛

- « ليس الأمر أنني أبالي قلامة ظفر بما سيجري لكم ، ولكن من أجل
الكلاب لا بد أن أقول لك ، إن بمقدورك أن تساعدنا إلى حد كبير بأن تفك
تلك الزلاجة ، أن لوعي الانزلاق محشوران بفعل الانجماد . ارم ثقلك على
عصا التوازن ، يميناً ويساراً ، وفكها » .

مرة ثالثة جرت المحاولة ، ولكن هذه المرة - إذ سمع هال النصيحة - فك
اللوحين اللذين كانا متجمدين حتى الانغراز بالجليد . تململ قدما الزلاجة
المحملة صعبة الإدارة ، إذ كافح (بك) وزملاؤه بسعار تحت مطر الضربات .
على بعد مائة ياردة إلى الأمام كان الممر يلتف وينحدر بحدة إلى الشارع
الرئيس . وكان الحفاظ على استقامة الزلاجة المثقلة وتوازنها يتطلب رجلاً
مجبوراً ، ولم يكن هال ذلك الرجل . فما أن داروا حول استدارة الطريق حتى
تهاوت الزلاجة ، دالقة نصف حملها عبر سيور التثبيت السائبة . لم تتوقف
الكلاب قط ، وبقيت الزلاجة - التي خف وزنها - مثبتة على جانبها وراء
الكلاب . كانت الكلاب غصبي بسبب سوء المعاملة التي تلقتها والحمل
الظالم . كان (بك) يتميز غيظاً . فانفلت راكضاً ، وحذا الفريق حذوه . صرخ
هال :

- « هوالا هوالا » ، ولكنها لم تبال . أخطأ الحركة فسحبته الزلاجة من
قدميه ، وانطرحت تطحنه ، وانطلقت الكلاب صاعدة الشارع ، مضيفة إلى
مرح سكاغواي أمراً جديداً فيما كانت تبعثر بقية المتاع على طول طريقها
الرئيس .

قام مواطنون طيبو القلوب بإمساك الكلاب وتجميع الأشياء المبعثرة . وكذلك ، قدموا النصيحة : نصف الحمل وضعف الكلاب ، إن كانوا ينتظرون الوصول إلى داوسن ، ذلك ما قيل . أصفى هال وأخته ونسييه دون إرادة ، ثم نصبوا الخيمة وفكوا المتاع . خرجت أمتعة معلبة جعلت الرجال يضحكون ، لأن الأشياء المعلبة على (الطريق الطويل) أمر للحلم فقط . وقال أحد الرجال الذين كانوا يضحكون ويساعدون :

- «البطانيات للفنادق . نصف هذا العدد كثير جداً ، تخلصوا منها . ارموا تلك الخيمة بعيداً ، وكل تلك الصحون - من سيفسلها ، على أية حال ؟ يا إلهي! أتظنون أنكم مسافرون بالقطار السريع ؟ » .

وهكذا كان : التخلص الصارم من الزوائد . وبكت مرسيدس عندما كومت حقائب ملابسها على الأرض وصار يرمى منها قطعة إثر قطعة . بكت في العموم ، كما راحت تبكي بصورة خاصة على كل شيء يرمى . ضمت يديها حول ركبتها ، موزجة نفسها إلى وراء وإلى أمام بفؤاد مكسور . أكدت أنها لن تتحرك بوصة واحدة ، حتى ولا من أجل دزينة من الـ(تشارلزات) ، توسلت إلى كل شخص وكل شيء ، وفي الآخر مسحت عينيها وانطلقت لترمي حتى مواد كسوة كانت ضرورات مؤكدة . وفي اندفاعها ، وبعد أن انتهت من أغراضها ، هاجمت أغراض رجلها وعصفت بها مثل إعصار .

وحتى بعد أن تم لها ذلك ، كانت الأمتعة - رغم أنها قلصت - ما تزال ذات حجم رهيب . وخرج تشارلز وهال في المساء فاشترى ستة كلاب خارجية . جعلت هذه ، مضافة إلى الكلاب الستة التي كانت تشكل أصل الفريق ، بالإضافة إلى (تيك) و(كونا) الهوسكيين اللذين تم الحصول عليهما عند (رنك رايبدرز) في الرحلة القياسية -مما جعل الفريق مكوناً من أربعة

عشر . ولكن الكلاب الخارجية ، مع أنها أدخلت ، عملياً ، بعنف إلى الفريق ، لم تكن تساوي الكثير . كان ثلاثة منها من صنف الـ(بوينتر)* من ذوات الشعر القصير ، وأحدها (نيوفاونلندي)** ، بينما كان الآخران هجينين من سلالة متوسطة . لم يكن يبدو عليهم أنهم يعرفون شيئاً ، هؤلاء القادمون الجدد . كان (بك) ورفاقه ينظرون إليهم باشمزاز ، ومع أنه علمهم ، بسرعة ، أماكنهم وما لا ينبغي لهم أن يفعلوه ، فإنه لم يستطع أن يعلمهم ما ينبغي أن يفعلوا . لم يتقبلوا العنان ولا الطريق بيسر . وباستثناء الهجينين ، فإنهم كانوا محتارين ومحطمي الأنفس بفعل البيئة الوحشية الغريبة التي وجدوا أنفسهم فيها وبفعل سوء المعاملة التي تلقوها . أما الهجينان ، فكانا بلا نفس أصلاً ، وما كان شيء فيهما مما يتحطم ، عدا عظامهما .

وإذا كان القادمون الجدد يائسين بائسين ، والفريق القديم مستنفداً بفعل الألفين والخمسائة ميل من الطريق المستمر ، فقد كان الأفق كل شيء عدا كونه براقاً . ومع ذلك ، فقد كان الرجلان مرحين ، وكانا فخورين ، أيضاً . كانا يقومان بالأمر حسب الأصول ، بأربعة عشر كلباً . لقد رأيا زلاجات أخرى تغادر على الطريق إلى داوسن ، أو قادمة من داوسن ، ولكنهما لم يريا قط زلاجة فيها عدد من الكلاب يبلغ أربعة عشر . كان ثمة في طبيعة الأسفار القطبية سبب يمنع قيام أربعة عشر كلباً بجري زلاجة واحدة ، وهو أن الزلاجة الواحدة لا يمكن أن تحمل طعام أربعة عشر كلباً . ولكن تشارلز وهال لم يكونا ليعرفا هذا . كانا قد حسبنا السفرة على ورق ؛ هذا المقدار للكلب الواحد ، هذا العدد من الكلاب ، في هذا العدد من الأيام ، والسلام . وأطلت ميرسيدس من فوق كتفيهما وهزت رأسها بتفهم : كان الأمر كله بسيطاً للغاية! .

في وقت متأخر من صباح اليوم التالي قاد (بك) الفريق الطويل صاعداً

* يعني : (المؤشر) ، وهو كلب كبير الحجم نحيل القوام يشم رائحة الطريدة ليقبلي يذشر نحوها .
** من كلاب أمريكا الشمالية ، وهي كبيرة الحجم كثة الشعر سوداء اللون ، غالباً . ذات ذكاء ، فوق المتوسط .

الشارع ، لم يكن ثمة ما هو حي في الفريق : فلا حياة ولا اندفاع فيه ولا في زملائه . كانوا قد بدؤوا متعبين حتى الموت . أربع مرات سبق له أن غطى المسافة بين (سولت واتر) وداوسن ، وكانت معرفته بأنه يواجه نفس الطريق مرة أخرى - مستنفداً ومتعباً - تجعله يشعر بالمرارة . لم يكن قلبه في الشغل ، كما لم يكن قلب أي كلب آخر . وكانت الكلاب الخارجية حيية ومرعوبة ، والقديمة لا تمتلك الثقة في أسيادها .

أحس (بك) بصورة غامضة أنه لا يمكن الاعتماد على ذينك الرجلين وتلك المرأة . لم يكونوا يعرفون أي شيء ، وفيما كانت الأيام تمر كان يتضح أنهم لا يمكن أن يتعلموا . كانوا جهلة بطينين في كل شيء ، من دون نظام ولا ضبط ، لقد استغرق اعدادهم لمخيم غير منتظم نصف ليلة ، ونصف صباح لتفكيك ذلك المخيم وتحميل الزلاجة حسب الأصول ، بتشويش يجعلهم مشغولين طوال النهار بالتوقف وإعادة ترتيب الحمل . في بعض الأيام ما كانوا ليقطعون عشرة أميال ، وفي أيام أخرى عجزوا عن التحرك أصلاً . ولم ينجحوا في أي يوم أن يقطعوا نصف المسافة التي يقطعها الناس ، كقاعدة لحساباتهم بخصوص طعام الكلاب .

كان محتملاً أن ينفذ طعام كلابهم . ولكنهم عجلوا ذلك بالمبالغة في الإطعام ، مقدمين اليوم الذي سيبدأ فيه التجويع . وكان للكلاب الخارجية - التي لم تتدرب أجهزة هضمها ، بالتجويع المتعمد ، على أن تفيد أكبر فائدة من أقل القليل - شهيات ضارية . وعندما أخذت الهوسكية المجعدة - إضافة إلى هذا - تجر بضعف ، قرر هال أن الحصة المتعارف عليها كانت صغيرة جداً ، فضاعفها . ولتضيف ضئلاً على أبالة ، فإن مرسيدس - وقد اغرورقت عيناها دموعاً وارتعش الصوت في حنجرتها - حين لم تستطع إقناعه بالتعلق أن يعطي الكلاب المزيد - سرقت من أكياس السمك وراحت تغذيها سرّاً .

ولكن لم يكن الطعام هو ما كان (بك) والهوسكيات بحاجة إليه ، وإنما الراحة . ومع أنهم كانوا يحققون سرعة خائبة ، فإن الحمل الذي كانوا يجرونه كان يستنزف قوتهم بحدة .

ثم جاء التجويع . استيقظ هال ذات يوم على حقيقة أن طعام كلابه قد نفذ نصفه في حين أنهم لم يقطعوا من طريقهم إلا ربيعاً ، وبالإضافة إلى ذلك ، فلم يكن يمكن الحصول على طعام إضافي للكلاب ، لا مقابل المال ولا لقاء أي شيء آخر . وهكذا ، فقد قلل حتى الحصة التقليدية وحاول أن يزيد سفر النهار . دعمته أخته ونسيبه ، ولكن هزمهم جهازهم الثقيل وعجزهم . كان أمراً سهلاً إعطاء الكلاب طعاماً أقل ، ولكن يستحيل جعل الكلاب تسافر أسرع ، في حين كانت عدم مقدرتهم على الانطلاق مبكرين أكثر صباحاً تمنعهم من السفر ساعات أطول . لم يكونوا يجهلون فقط كيفية معاملة الكلاب ، بل كانوا يجهلون أيضاً كيف يعاملون أنفسهم .

كان أول من قضى دوب . إن ذلك اللص سريع الانكشاف المسكين ، الذي كان يقبض عليه دائماً فيعاقب ، كان مع ذلك شغيفاً مخلصاً . كان عظم كتفه المروض - الذي لم يعالج فلم يسترح - يزداد سوءاً حتى أطلق عليه هال النار أخيراً من مسدسه الكولت الكبير . إن من الأقوال المأثورة في البلاد أن كلباً خارجياً يتضور حتى الموت بحصة الهوسكي ، وهكذا فإن الكلاب الخارجية الستة ، تحت قيادة (بك) ما كان بمقدورها إلا أن تموت على نصف حصة الهوسكي . وقضى النيوفاونلندي أولاً ، ثم تبعته البوينترات الثلاثة ذات الشعر القصير ، ومع تشبث الهجينين بشجاعة أكبر بالحياة ، إلا أنهما مضيا أخيراً .

في هذه الأثناء تهاوت كل رقة الجنوب وجاذبياته عن هؤلاء الأشخاص الثلاثة . لقد أصبح السفر القطبي بالنسبة لهم - بعد أن تجرد من غموضه

ورومانسيته - واقعاً أكثر خشونة مما يمكن لرجولتيهما وأنوثتها أن تحتمل .
كفت مرسيدس عن البكاء على الكلاب ، لكونها أكثر انشغالاً بالبكاء على
نفسها وبالعراك مع زوجها وأخيها . كان العراك هو الأمر الوحيد الذي لا
يتعبون من القيام به . كانت استشارتهم تنشأ عن بؤسهم ، وتزداد معه ،
وتتضاعف عليه ، فتتجاوزة . إن صبر الطريق العجيب ، الذي يحل على
الرجال الذين يكدون بمشقة فيعانون من المرارة وبيقون رقيقتي الكلام طبيين ،
ذلك الصبر لم يحل بذينك الرجلين وتلك المرأة . لم تكن لديهم خصاصة من
مثل هذا الصبر . كانوا متصلبين موجوعين ، تتألم عضلاتهم ، تتألم عظامهم
وتتألم حتى قلوبهم ، وبسبب من هذا صاروا حاذي الكلام ، وكانت الكلمات
الفضة أول شيء على شفاههم صباحاً وآخر شيء عليها مساء .

كان تشارلز وهال يتعاركان كلما أعطتهم مرسيدس فرصة . وكان
الاعتقاد الذي يداريه كل منهما هو أنه قام بأكثر من حصته من العمل ، فلم
يكن يتحفظ من إعلان اعتقاده ذاك في كل سائحة . وكانت مرسيدس تأخذ
جانب زوجها أحياناً ، وجانب أخيها أحياناً أخرى . وكانت النتيجة شجاراً
عائلياً جميلاً لا ينتهي . إن شجاراً يبدأ من الخلاف حول من ينبغي أن يقطع
بضع خشبات للنار (وهو خلاف لا يخص غير تشارلز وهال) كان ينسحب
أخيراً على بقية العائلة ، آباء وأمهات وأعمام وأخوال وأبناء أعمام وأخوال ،
على أناس يبعدون آلاف الأميال وبعضهم ميت . إن كون آراء هال في الفن ،
أو نوع التمثيليات الاجتماعية التي يكتبها خاله ، ذات علاقة بتقطيع بضعة
أعواد من الخشب للوقود ، أمر يتجاوز الإدراك ، ومع ذلك فقد كان يحتمل
أن يميل الشجار إلى ذلك الاتجاه كما يحتمل أن يميل إلى ولاءات تشارلز
السياسية . وإن احتمال أن تكون ثمة علاقة للسان أخت تشارلز ، المهذار ،
بإقامة نار هندية أمر غير واضح إلا بالنسبة لمرسيدس ، التي كانت تنفض

عن كاهلها أفكاراً مستفيضة حول ذلك الموضوع ، و - عرضاً - عن بضع نواح أخرى تخص عائلة زوجها ، فهذا أمر لا يسر أحداً . وفي هذه الأثناء تبقى النار غير معدة ، والمخيم نصف محفور ، والكلاب بلا طعام .

كانت مرسيدس تنمي حزناً خاصاً - حزن الجنس . كانت جميلة وناعمة ، وقد نالت معاملة فروسية طيلة حياتها . ولكن معاملة زوجها وأخيها الحالية كانت كل شيء ، عدا أن تكون فروسية . كان من عادتها أن تكون يائسة . كانا يشكيان . وعند ذلك - متهماً ما كان بالنسبة لها تفوقها الجنسي الأكثر أساسية - كانت تجعل حياتيهما مستحيلة . لم تعد تراعي الكلاب . ولأنها كانت تشعر بالمرارة والتعب ، فقد ألحت أن تتركب الزلاجة . كانت جميلة وناعمة ، ولكنها كانت تزن مائة وعشرين رطلاً - قشة أخيرة كسولاً على الحمل الذي تجره الحيوانات الضعيفة والمتضجرة جوعاً . بقيت راكبة أياً ما ، حتى سقطت الكلاب في الأعنة ووقفت الزلاجة ساكنة دون حراك . استجدها تشارلز وهال أن تنزل وتمشي ، توسلا إليها ، حثاها ، في حين كانت تبكي وتزعج السماء بمحفوظة عن وحشيتها .

و ذات مرة أنزلها عن الزلاجة بالقوة . ولم يعاودا ذلك بعد . فقد تركت ساقيهما ترتحيان فعل طفل مدلل ، وجلست على الطريق . استمررا في طريقهما ، ولكنها لم تتحرك . وبعد أن قطعاً ثلاثة أميال أفرغا الزلاجة ، وعادا في طلبها ، وبالقوة أركبها الزلاجة ثانية .

في ازدياد بؤسهم الخاص كانوا أشدء أمام معاناة حيواناتهم . وكانت نظرية هال - التي كان يطبقها على الآخرين - ان المرء ينبغي أن يتصلب . بدأ يعظ بها أخته ونسيبه . واذا فشل هناك ، راح يفرضها على الكلاب بالهراوة . عند ال(فايف فغرز) ، نفذ طعام الكلاب ، فعرضت عليهم هندية عجوز عديمة الأسنان مقايضة بعض أرطال من جلد حصان مجمد بالمسدس

الكولت الذي كان يستقر على ردف هال مع سكين الصيد . كان ذلك الجلد الخام بديلاً بانساً عن الطعام ، كما كان بانساً عندما سلخ عن خيل الرعاة الجائعة قبل ستة شهور ، تماماً . وفي حالته المتجمدة ، كان أكثر شبهاً بشرائط من حديد مغلون ، وعندما كان يصارعه كلب ما ليودعه معدته كان يذوب ليصير سيوراً جلدية خفيفة لا مغذية وكتلة من الشعر القصير ، مزعجة وغير قابلة للهضم .

وطوال ذلك كله كان (بك) يمضي قدماً على رأس الفريق كما لو في كابوس . كان يجر عندما يستطيع ، وعندما لم يكن بمقدوره أن يجر كان يسقط ويبقى مطروحاً حتى ترفعه على ساقيه ثائية ضربات سوط أو هراوة . لقد زال عن معطفه الفرائي الجميل كل الصلابة والبريق . كان الشعر يتدلى رخواً مبللاً ومتسخاً ، أو كايأ بفعل الدم المتيسبب حيث تكون هراوة هال قد كدمته . وكانت عضلاته قد ضاغت لتصير حبلاً ذات عقد ، واختفت طيات اللحم ، بحيث أن كل ضلع وكل عظم في هيكله صار محدداً بوضوح خلال الجلد المرتخي الذي كان يتغضض في طيات من فراغ . كان ذلك مما يحطم الفؤاد . وكل ما هنالك أن فؤاد (بك) كان عصياً على الكسر . وقد برهن على ذلك الرجل ذو البلوزة الحمراء .

كما جرت الأمور مع بك ، جرت مع زملائه . صاروا هياكل تمشي ، كانوا جميعهم سبعة ، بما فيهم هو . وفي بؤسهم الهائل جداً لم يعودوا يحسون لسعة السوط أو كدمة الهراوة . كان وجع الضرب غائماً وبعيداً ، بالضبط كما كانت تبدو الأشياء التي تراها عيونهم وتسمعها آذانهم غائمة وبعيدة . لم يكونوا نصف أحياء ، ولا ربع أحياء . كانوا ، ببساطة ، عدة أكياس من العظام ترتعش فيها ومضات خابية من الحياة . عندما كان يتم توقف ، كانوا يتهاوون في الأعنة مثل كلاب ميتة ، فكانت الومضات تعتم وتشحب وتبدو

قد اندثرت . وعندما كانت الهراوة ، والسوط يقع عليهم ، كانت الومضة تتصاعد خابية ، فكانوا يرتعشون على قوائمهم ويتشرون .

وجاء يوم سقط فيه بيلي ، الطيب ، ولم يتمكن من النهوض . كان هال قد قايض بمسدسه ، وهكذا فقد أخذ الفأس وضرب بيلي على الرأس فيما كان ممدداً على الأعنة ، ثم قطع رباط الجثة من الأسرجة وسحبها إلى جانب . رأى (بك) ذلك ، ورآه زملاؤه ، وقد عرفوا أن ذلك الشيء كان قريباً جداً منهم . في اليوم التالي مضت كونا ، فلم يبق منهم غير خمسة : جو ، الذي تلاشى كثيراً حتى لم يعد حقوداً ، وبايك ، المشوه الأعرج نصف الواعي والذي لم يكن واعياً بما يكفي ليتمارض ، وسول ليكس ، الأعور الذي كان لا يزال مخلصاً لكد العنان والطريق ، والذي كان حزيناً لأنه ليست لديه إلا قوة قليلة يسحب بها ، وتيك ، الذي لم يكن قد سافر كثيراً ذلك الشتاء والذي كان الآن محطماً أكثر من الآخرين لأنه كان حديث العهد أكثر . و(بك) ، وهو لا يزال على رأس الفريق ، ولكن الذي لم يعد يفرض الضبط أو يجاهد لفرضه ، والذي أعماه الضعف نصف الوقت بينما أتم عماء البقاء على الطريق بذلك الضعف وبالأحاساس الخابي لرجليه .

كان جواً ربيعياً جميلاً ، ولكن لم يحسه لا الكلاب ولا البشر . كانت الشمس تشرق كل يوم في وقت أبكر وتغرب في وقت أكثر تأخراً . كان الفجر يحل في الثالثة صباحاً ، بينما يتباطأ الغسق حتى التاسعة مساءً . كان النهار بطوله بريقاً من الشمس الساطعة . لقد أخلت صمت الشتاء الشبحي مكانه للهمهمة الربيعية العظيمة لاستيقاظ الحياة . وقد ارتفعت هذه الهمهمة من كل الأرض ، محملة بمتعة الحياة . جاءت من الأشياء التي كانت تحيا وتتحرك ثانية ، الأشياء التي كانت كالمتة والتي لم تتحرك طيلة شهور الصقيع الطويلة . كان النسغ يتصاعد في أشجار الصنوبر . وكانت الشجيرات

والأشجار تنفجر في براعم فتية . وكانت الأجسام والحمائل ترتدي حلاً جديدة من الحضرة . كانت الصراصر تغني في الليالي ، وفي النهارات كانت كل أنواع الأشياء الزاحفة المتلوية تصدر حفيفاً تحت الشمس . كانت طيور الدراج ونقار الخشب تضج وتدق الغابة دقاً . وكانت السناجب تصخب والطيور تغني ، وفي الأعالي كان زعيق الطيور الوحشي ينطلق صعداً من الجنوب في سهام جريئة تشطر الهواء .

من سفح كل تل كان يأتي خرير ماء جار ، وموسيقى نافورات لا مرئية . كانت كل الأشياء تذوب ، تتقوس وتتهشم . وكان الـ(يوكون) يجهد ليكسر الجليد الذي كان يشده إلى تحت . كان يأكل من أسفل ، بينما تأكل الشمس من فوق . تشكلت فجوات هواء ، وانفلقت خدوش في الصخور وانتشرت منفصلة ، في حين تساقطت شطائر رقيقة من الثلج - بأحجامها الكاملة - هاوية في النهر . وفي وسط كل هذا التفتح والتمزق ونبض استيقاظ الحياة ، تحت أشعة الشمس وعبر النسيم ذي الهسيس ، مثل مسافرين على الأقدام إلى الموت ، كان الرجلان والمرأة والكلاب الهوسكية ، يدرجون .

الكلاب تتساقط ، ومرسيدس تبكي وتركب ، وهال يشتم من دون قصد سوء ، وعينا تشارلز تدمعان بلهفة غامضة ، بذلك كله راحوا يدرجون إلى مخيم (جون ثورنتون) في مدخل (وايت ريفر) . وعندما توقفوا ، تداعت الكلاب كما لو أنها سقطت جميعاً ميتة . جفت مرسيدس عينيها ونظرت إلى جون ثورنتون . جلس تشارلز على جذع ليستريح . جلس ببطء شديد وتوجس بالغ ، لشدة تيبسه . قام هال بالحديث ، وكان جون ثورنتون يضع - بسكين - اللمسات الأخيرة على مقبض فأس كان قد صنعه من عصا من الـ(بتولا) . كان يكحت ويصني ، يعطي أجوبة أحادية المقطع ، كما يعطي

نصائح مقتضبة ، عندما تطلب منه . كان يعرف الجنس الذي يحادثه ، فكان يعطي النصيحة وهو واثق من أنها لن تتبع .
قال هال ، رداً على تحذير ثورنتون من عدم المجازفة مزيداً على الجليد المهترئ :

- « أخبرونا هناك ، فوق ، أن القعر يتساقط عن الطريق وأن أفضل شيء لنا هو أن ننتظر . لقد أخبرونا أننا لن نتمكن من بلوغ (وايت ريفر) ، وها نحن هنا » ، وكان في الجملة الأخيرة نغمة انتصار مكشورة .
أجاب جون ثورنتون :

- « لقد أخبروكم الحق . قد ينهار القعر في أية لحظة . ما كان ليستطيع أحد غير الحمقى ، حين يحالفهم الحظ الأعمى ، أن يبلغوه . وإنني لأقول لك بصراحة ، إنني لن أجازف بجثتي على ذلك الجليد لقاء ذهب ألاسكا كله » .
فقال هال :

- « ذلك لأنك لست أحمق ، كما أفترض . ومع ذلك ، فسنستمر حتى داوسن » ، ثم فك سوطه ، وواصل :
- « انهض أنت . يا بك! انهضوا! تقدموا! » .

استمر ثورنتون يكحت . كان من العبث ، وهو يعرف ذلك ، التدخل بين الأحمق وحماقته ، في حين أن زيادة أحمقين أو ثلاثة لن يغير مجرى الأمور .

ولكن الفريق لم ينهض انصياعاً للأمر . كان قد انتقل منذ أمد بعيد إلى المرحلة التي تقوم فيها الحاجة إلى الضرب كي ينهضه . فقرقع السوط ، هنا وهناك ، في انطلاقاته القاسية . ضغط جون ثورنتون شفتيه . كان سول ليكس أول من زحف ليقف . تبعه تيك ، وجاء جو تالياً ، يصرخ من الألم . قام بايك بجهود مضيئة . تهاوى مرتين قبل أن يتم نهوضه ، وفي المرة الثالثة

نجح في الوقوف . لم يتم (بك) بأي مسعى . كان يتمدد هادئاً حيث سقط قبلاً . كان السوط ينهش فيه مرة وأخرى ، ولكنه لم يهر ولم يكافح حتى . وعدة مرات بدا ثورتون . كما لو أنه يريد يتكلم ، ولكنه غير رأيه . وحلت رطوبة في عينيه . وفيما استمر الجلد نهض وراح يمشي ، بدون قرار ، جيئة وذهوباً .

كانت هذه أول مرة يخفق فيها (بك) ، وكان ذلك بحد ذاته سبباً كافياً لجعل هال يتسعر غضباً . استبدل السوط بالهراوة المألوفة . رفض (بك) أن يتحرك تحت مطر الضربات الأثقل التي أخذت تتساقط الآن عليه . ومثل زملائه ، كان بالكاد قادراً على النهوض . ولكنه - على عكسهم - كان قد عزم ألا ينهض . كان يحس إحساساً غامضاً بالفاجعة الوشيكة . وكان هذا الإحساس قوياً عليه عندما انسحب إلى الضفة ، ولم يزايله بعد ذلك . ما أحسه من جليد رقيق هش تحت قدميه طوال النهار ، كان يبدو أنه يحس كارثة قريبة ، هناك إلى أمام على الجليد حيث كان سيده يحاول أن يسوقه . رفض أن يتحرك . لقد كانت معاناته عظيمة للغاية ، وكان متلاًشياً للغاية ، بحيث أن الضربات لم توجعه كثيراً . وفيما تواصل سقوطها عليه ، خفقت شعلة الحياة في داخله واضمحلت . أوشكت أن تنطفئ . أحس خدراً غريباً . وكما لو من مسافة غاية في البعد . كان يدرك أنه يضرب . زاييلته آخر أحاسيس الألم . لم يعد يحس شيئاً ، مع أنه كان بمقدوره أن يسمع - بشكل خاب جداً - وقع الهراوة على بدنه ، ولكنه لم يعد بدنه ، كان يبدو بعيداً جداً .

ثم ، فجأة ، بدون تحذير ، وهو يطلق صرخة كانت مكتومة ، صرخة حيوان أكثر منها أي شيء آخر ، قفز جون ثورتون على الرجل الذي كان يلوح بالهراوة . تراجع هال إلى وراء ، كما لو ضربته شجرة هاوية وصرخت

مرسيدس ، نظر تشارلز إلى أمام بحذر ، ومسح عينيه المبللتين ، ولكنه لم ينهض بسبب تيبسه .

وقف جون ثورنتون فوق (بك) ، مكافحاً كي يسيطر على نفسه ، وقد شنجه الغضب إلى حد يمنع من الكلام . وأخيراً ، تمكن أن يقول بصوت مختنق :

- « إذا ضربت ذلك الكلب ثانية ، فسأقتلك » . ورد هال ، وهو يمسح الدم عن فمه فيما التقط أنفاسه :
- « إنه كليبي ، ابتعد عن طريقي ، وإلا فسأعلمك كيف تبتعد . إنني ذاهب إلى داوسن » .

وقف ثورنتون بينه وبين (بك) ، ولم يكشف عن أية نية في الابتعاد عن الطريق . واستل هال سكين صيده الطويلة . صرخت مرسيدس ، بكت ، ضحكت ، ثم أظهرت الاستسلام المرتبك إلى الهستيريا . نقر ثورنتون مفاصل أصابع هال بمقبض الفأس ، مسقطاً السكين إلى الأرض . ثم نقر مفاصل أصابعه مرة أخرى عندما حاول أن يلتقطها . ثم انحنى ، والتقطها هو . وضربتني قطع أعنة (بك) .

لم يتبق لدى هال أي قتال . وإضافة إلى ذلك كانت يداه مليئتين بأخته ، أو ذراعه بالأخرى . بينما كان (بك) أقرب إلى الموت من أن يصلح لجر الزلاجة . وبعد بضع دقائق انسحبوا عن الضفة ومضوا هابطين مع النهر . سمعهم (بك) يذهبون ، فرفع رأسه ليرى . كان بايك يقود ، وسول ليكس عند العجلة ، وكان جو وتيك بينهما . كانوا يعرجون ويترنحون . وكانت مرسيدس تركب الزلاجة المحملة . وكان هال يقود عند عصا التوازن ، في حين كان تشارلز محشوراً عند المؤخرة .

فيما كان (بك) يراقبهم ، ركع ثورنتون إلى جانبه وراح يبحث - بيدين

خشتين لطيفتين - عن العظام المكسورة . وعندما لم يسفر تفتيشه عن شيء أكثر من عدة سحجات ، وحالة تضور فطيع من الجوع . كانت الزلاجة قد صارت على بعد ربع ميل . راقبها الكلب والرجل تزحف عبر الثلج ، وفجأة ، رأيا مؤخرتها تسقط ، كما لو بفعل شبق حيواني ، وعصا التوازن تنشمر - وهال متشبث بها - في الهواء . بلغت صرخة مرسيدس آذانهما . رأيا تشارلز يدور ويقوم بخطوة واحدة كي يركض إلى خلف ، ثم انهار مقطوع كامل من الثلج فاخفى الكلاب والناس . كانت فجوة فاغرة هي كل ما يمكن رؤيته . كان القعر قد سقط من الطريق .

نظر جون ثورنتون و(بك) ، كل منهما ، إلى الآخر . ثم قال جون ثورنتون :

- « أيها الشيطان المسكين » .

ولعق (بك) يده .

٦- آجل حب رطل

عندما جمدت قدما جون ثورنتون في كانون الأول الماضي ، كان شريكاه قد جعلاه يستريح وتركاه ليتحسن ، صاعدين بمفردهما النهر ليوصلا عبّارة محملة بجذوع النجارة إلى داوسن . وكان لا يزال يعرج قليلاً عندما أنقذ (بك) ، ولكن بتواصل الجو الدافئ تخلص حتى من العرج الخفيف . وهنا ، ممتدداً عند ضفة النهر عبر نهارات الربيع الطويلة ، مراقباً الماء الدافئ ، مصغياً بكسل إلى أغاني الطيور وهمهمة الطبيعة ، استعاد (بك) قوته ببطء .

إن راحة جيدة للغاية تحلّ بعد أن يكون الواحد قد سافر ثلاثة آلاف ميل ، ولا بد من الاعتراف بأن (بك) قد صار كسولاً فيما كانت جراحه تلتئم ، وانتفخت عضلاته ، وعاد اللحم يغطي عظامه ، لذلك السبب ، كانوا يقتلون الوقت جميعاً : (بك) وجون ثورنتون وسكيت ونيج - منتظرين مجيء العبّارة التي كانت ستقلّهم إلى داوسن . كانت سكيت من سلالة الـ(سيتر)* الإيرلندية ، صغيرة ، توددت إلى (بك) مبكراً ، (بك) الذي لم يكن قادراً - إذ كان على شفير الموت - أن يحس ملاطفاتها . كانت لديها لمسة الطبيب التي لبعض الكلاب . وكما تفصل الهرة أولادها كذلك غسلت سكيت جروح

* فصيلة كلاب طويلة الشعر مدببة الوجه ، تدرب على محاصرة الطريدة والإشارة إليها بمد جسدها .

(بك) وطهرتها . بانتظام ، كل صباح بعد أن يكون قد أنهى فطوره ، كانت تؤدي مهمتها التي حددتها لنفسها ، حتى صار يترقب خدماتها كما كان ينتظر مساعدات ثورتون . أما نيغ ، الذي كان ودوداً بنفس القدر وإن كان أقل عرضاً للود ، فقد كان كلباً أسود ضخماً ، نصف كلب دم* ونصف كلب غزال** ، له عنان تضحكان وطبيعة طيبة بلا حدود .

أدهش (بك) أن ذينك الكلبين لم يظهرأ نحوه حسداً . لقد بدا وكأنهما يتقاسمان رقة جون ثورتون وسعته . وفيما ازدادت قوة (بك) راحا يغريانه بأداء كل أنواع الألاعيب المضحكة ، التي كان جون ثورتون نفسه لا يتورع عن المشاركة فيها . وبهذه الصورة اجتاز (بك) ، ببسر فترة نقاهته إلى وجود جديد . لقد صار الحب ، الحب العاطفي الحقيقي ، من نصيبه لأول مرة . لم يسبق أن جرب هذا في بيت القاضي ميلر في وادي سانتا كلارا ، الذي تقبله الشمس . مع أولاد القاضي ، كان الصيد ونصب الفخاخ شراكة في العمل ، ومع أحفاد القاضي ، كان نوعاً من الوصاية المغرورة ، أما مع القاضي نفسه فكان صداقة موقرة وذات أبهة . ولكن الحب المحموم والمحرق ، الحب الذي هو عبادة ، جنون ، فهو يحتاج إلى جون ثورتون ليثيره .

لقد أنقذ هذا الرجل حياته ، وقد كان هذا شأنأ عظيماً ، ولكنه كان - بالإضافة إلى ذلك - السيد المثالي . كان الرجال الآخرون يرعون رفاه كلابهم بدافع حس بالواجب ، أو كواجب عملي . أما هو ، فكان يراعي كلابه كما لو كانوا أطفاله ، لأنه لم يكن يستطيع ألا يفعل ذلك . لم يكن ينسى أبداً تحية رقيقة أو كلمة ملاطفة ، وكان جلوسه لإجراء حديث طويل معهم مبعث سرور له كما هو لهم . كانت له طريقة في تناول رأس (بك) بفضاظة بين يديه ، وإراحة رأسه على رأس (بك) ، وهزه إلى وراء وأمام ، مطلقاً عليه ، في هذه

* كلب ضخم حاد الحواس كبير الأذنين ، متدفن الوجه .

** كلب كبير أشعث الشعر يستخدم لصيد الغزلان .

الأثناء ، شتائم كانت ، بالنسبة لـ(بك) ، أسماء حب . لم يعرف (بك) متعة أعظم من ذلك العناق اللفظ وصوت الشتائم المهموسة ، وعند كل هزة إلى وراء وإلى أمام كان يبدو أن قلبه سيهتز حتى يخرج من جسده . إلى هذا المدى كانت اللذة عظيمة . وعندما كان يطلقه فيقفز واقفاً ، ضاحك الفم وعيناه ناطقتان وحنجرته ترتعش بصمت غير منطوق ، ويبقى على تلك الحال من دون حركة ، كان جون ثورنتون يطلق ، باحترام ، صيحة تعجب : « يا إلهي ! إنك تستطيع القيام بكل شيء ، عدا الكلام » .

كانت لدى (بك) لعبة ، يعبر بها عن الحب ، قريبة من إيقاع الأذى . كان غالباً ما يمسك يد ثورنتون بفمه ويغلقه عليها بضراوة بالغة تجعل لحمها يحمل طبقات الأسنان لوقت طويل بعدها . ولما كان (بك) يفهم الشتائم على أنها كلمات حب ، كذلك كان الرجل يفهم هذه العضة الظاهرية على أنها عناق .

على كل حال ، فقد كان حب (بك) يتم التعبير عنه بالعبادة . ففيما كان يجن فرحاً عندما يلمسه ثورنتون أو يكلمه ، كان لا يسعى إلى هذه الملاحظات . وعلى عكس سكيت ، التي كانت معتادة على دس أنفها تحت يد ثورنتون وتبقى تكز وتكز حتى يلاعبها ، أو نبغ ، الذي كان ينسل فيريح رأسه العظيم على ركبة ثورنتون ، كان (بك) يقنع بتأمله على البعد ، كان يتمدد طيلة ساعات ، متلهفاً يقظاً ، عند قدمي ثورنتون ، متأملاً إلى أعلى في وجهه ، مستقراً عليه ، دارساً إياه ، متابعاً باهتمام بالغ اللهفة كل تعبير مرتسم ، وكل حركة أو تغيير ملمح . أو ، كما يمكن للصدف أن تجعله يفعل ، كان يتمدد بعيداً إلى جانب أو في المؤخرة ، مراقباً خطوط ظلال الرجل والحركات العرضية لجسده . وكان الاتحاد الذي يعيشان فيه من التماسك بحيث أن قوة تحديق (بك) كانت غالباً ما تلفت نظر جون ثورنتون إليه ،

فكان يرد التحديق ، دون كلام ، وقلبه يشع من عينيه كما يشع قلب (بك) خارجاً .

لمدة طويلة بعد إنقاذه ، بقي (بك) يكره أن يبتعد ثورنتون عن ناظريه . فمنذ الدقيقة التي كان فيها يغادر الخيمة حتى كان يدخلها ثانية ، كان (بك) يتبعه عند عقبيه تماماً . لقد رتب في أسياده الطارئون - منذ جاء إلى الشمال - خوفاً سيمسحه ثورنتون من حياته كما انمسخ من حياته بيرو وفرانسوا والخلاسي الاسكتلندي . وحتى في الليل ، في أحلامه ، كان مسكوناً بهذا الخوف . في مثل هذه الأوقات كان يهز النعاس طارداً إياه ويزحف عبر الزمهرير إلى فتحة الخيمة ، حيث كان يمكنه أن يقف ويصني إلى صوت تنفس سيده .

ولكن ، على الرغم من الحب العظيم الذي كان يكتنه لجون ثورنتون ، الذي كان يبدو وكأنه يشي بالتأثير التمدني الناعم ، فقد بقيت روح البداء - التي أثارها الشمال فيه - حية وفعالة . كان من شأنه الإخلاص والولاء التام ، الأمران اللذان تلدهما النار والسقف ، ومع ذلك فقد حافظ على وحشيته وجراته . كان شيئاً يخص التوحش ، يأتي من التوحش ليجلس عند نار جون ثورنتون ، أكثر منه كلباً من الجنوب الناعم ممهوراً بعلامات أجيال من المدنية . وبسبب من حبه العظيم جداً ، لم يكن بمقدوره أن يبتعد عن هذا الرجل ، أما عن أي رجل آخر ، في أي مخيم آخر ، فما كان ليتردد برهة ، في حين كانت المرأة التي ينسل بها تمكته من تجنب الشك فيه .

كان وجهه وجسده معلّمين بأسنان العديد من الكلاب ، وظل يحارب بضراوة كضراوة الأيام السابقة ، وبمهارة أكبر . كانت سكيت ونيفغ أطيّب من أن يتشاجرا ، وإضافة إلى ذلك ، كانا يخصان جون ثورنتون . ولكن الكلب الغريب ، كائناً ما كانت سلالته وشجاعته ، يعترف مسرعاً بتفوق (بك) وإلا

فهو يجد نفسه يكافح للإبقاء على حياته ضد خصم رهيب . وكان (بك) عديم الرحمة ، كان قد تعلم جيداً قانون الهراوة والتاب ، فلم يستغن عن منفعة ولا انسحب عن خصم كان قد بدأ معه على طريق الموت ، قط . كان قد تلقن الدرس من سبتز ، ومن كلاب العراك الرئيسة لدى الشرطة أو البريد ، وكان يعرف أنه ليس ثمة طريق وسط . لا بد له أن يسود أو يخضع لسيد ، بينما كان إظهار الرحمة ضعفاً . لم يكن للرحمة وجود في الحياة الأزلية ، كان يساء تفسيرها على أنها خوف ، وكان سوء فهم كهذا يعني الموت . اقتل وإلا تقتل ، كل وإلا تؤكل ، كان ذلك هو القانون ، ولقد أطاع هذا الحكم الممتد في أعماق الزمن .

كان (بك) أكبر من الأيام التي رآها والأنفاس التي استنشقتها . لقد ربط الماضي بالحاضر ، وكانت الأبدية التي وراءه تنبض عبره في إيقاع جبار كان هو يميل إليه كما يتحرك المد والجزر والفصول . كان يجلس عند نار جون ثورنتون ، كلباً عريض الصدر ، أبيض الأنياب ، طويل الفراء ، ولكن وراءه كانت ظلال كل حالات الكلاب وأنصاف الذئاب والذئاب الوحشية ، ملحة حائلة ، متذوقة طعم اللحم الذي كان يأكله ، متعطشة للماء الذي يشربه ، شامة الريح معه ، مصغية معه ومخبرة إياه بالأصوات التي تحدثها الحياة الوحشية في الغابة ، عملية أمزجته ، موجهة أعماله ، متمددة كي تنام معه عندما يتمدد ، وحاملة معه ووراءه وصائرة هي نفسها مادة أحلامه .

ولقد كانت هذه الظلال تستدعيه بحسب بالغ بحيث راح الجنس البشري وادعاءات البشرية تنسلّ مبتعدة عنه يوماً بعد يوم . وعميقاً في الغابة كان نداء يدوي ، وتصور ما كان يردده ذلك النداء ، مهيجاً بغموض ، كان يحس نفسه مجبراً على إدارة ظهره للنار والأرض المخفوقة حوله ، وأن يندفع إلى الغابة ، ويمضي قدماً فيها ، دون أن يعرف إلى أين أو لماذا ، ولا يتساءل أين

أو لماذا ، والتداء يصوت بجلال ، عميقاً في الغابة . ولكن ، بقدر ما كان يحوز الأرض الناعمة غير المخدوشة والظل الأخضر كان حبه لجون ثورنتون يسحبه إلى وراء ، نحو النار ثانية .

لم يكن يسكه غير ثورنتون . كان بقية النوع البشري مثل لا شيء . قد يمتدحه المسافرين الطارئون أو يدللونه ، ولكنه كان يثقي بارداً تحت ذلك كله ، وإذا كان من يفعل ذلك رجل محب للتظاهر كثيراً فإنه كان يقوم ويبتعد عنه . وعندما وصل شريكا ثورنتون : (هانس) و (بيت) ، على العبارة التي طال انتظارها ، رفض (بك) أن يلاحظهما إلى أن عرف أنهما كانا قريبين جداً إلى ثورنتون ، وبعدئذ تحملهما بطريقة سلبية ، قابلاً ملاطفتهما وكأنه يمين عليهما قبوله إياها . كانا من نفس طراز ثورنتون الضخم ، يعيشان قريبين من الأرض ، مفكرين ببساطة فيريان بوضوح ، وما إن نقلا العبارة إلى مجرى التيار الكبير عند المنشرة بداوزون ، حتى فهما (بك) وأساليبه . قلم يلحا في طلب معاملة صميمية كالتي كانا ينالانها من سكيت ونيغ .

أما بالنسبة لثورنتون ، فقد كان يبدو حبه ينمو وينمو . لم يكن بمقدور سواه أن يضع رزمة على ظهر (بك) في السفر الصيفي . لم يكن أي شيء كبيراً على (بك) بحيث لا يمكنه القيام به ، عندما يأمر ثورنتون بذلك .

ذات يوم ، (وكانوا قد اقترضوا بضمانة عائدات العبارة فجهزوا وغادروا داوزون نحو أعالي المياه في « تانانا ») ، كان الرجال والكلاب على ذروة جدار صخري ينحدر ، مباشرة إلى أسفل ، على حوض صخري أجرد على ارتفاع ثلاثمائة قدم إلى أسفل . وكان جون ثورنتون يجلس قرب الحافة ، فلفت انتباه هانس وبيت إلى التجربة التي كان يبيتها في ذهنه .

- « اقفز ، يا (بك) » ، أمر وهو يمد ذراعه ماسحاً به وناشراً إياه فوق الهاوية . وفي اللحظة التالية كان ينشبت مع (بك) بالحافة القصوى ، في حين

كان هانس وبيت يجرائهما ثانية إلى الأمان .
- « إنه لغريب الصلابة » ، قالها بيت بعد أن انتهى الأمر وتكنوا من مباشرة الكلام .
فهز ثورنتون رأسه :
- « كلا ، إنه رائع ، وهو رهيب ، أيضاً . هل تعرفان ، أنه يجعلني أخاف أحياناً » .
فأعلن بيت مستنجباً ، وهو يهز رأسه نحو (بك) :
- « إنني لن أتمنى أن أكون الرجل الذي يمد يده عليك حينما يكون هو قريباً » . أما تعليق هانس فكان :
- « بحق المسيح ! ولا أنا أيضاً » .
عند (سيركل ستي) ، وقد انتهت السنة ، تحققت تصورات بيت . كان بلاك بيرتون ، وهو رجل شرير المزاج وحقوق ، يبحث عن شجار مع أي وارد جديد عند المشرب ، عندما تدخل ثورنتون ، عن طيبة . وكان (بك) ، كما هي عادته ، متمدداً في زاوية ، رأسه على مخالفه ، مراقباً كل حركة من حركات سيده . فضرب بيرتون ، دون إنذار ، باستقامة من الكتف . وانشمر ثورنتون يتلوى ، ولم ينقذ نفسه من السقوط إلا بالتشبث بسكة المشرب .
سمع أولئك الذين كانوا يتفرجون ما لم يكن نباحاً ولا صرخة . وإنما شيئاً أحسن ما يوصف به أنه زئير ، كما رأوا جسد (بك) يرتفع في الهواء فيما غادر الأرض بحثاً عن حنجرة بيرتون . وأنقذ الرجل حياته بأن مد ذراعه غريزياً ، ولكنه سرعان ما طوي ثانية على الأرض و(بك) يعلوه . أعرض (بك) بأسنانه عن لحم الرجل وراح يبحث من جديد عن الحنجرة . وهذه المرة لم ينجح الرجل إلا في منعه جزئياً ، فانشقت حنجرته وغدت مفتوحة . ثم صار الجمهور فوق (بك) ، وجرى سحبه بعيداً . ولكن ، بينما كان أحد

الجراحين يفحص النزف ، كان (بك) يندفع صعوداً ونزولاً ، هاراً مسعوراً ، محاولاً الانطلاق ، مضطراً إلى التراجع تحت سيل الهراوات المعادية . وقرر «اجتماع لرجال المناجم» - دعي للانعقاد في الموقع - إن الكلب قد لقي استفزازاً كافياً ، فبرئ (بك) . ولكن ترسخت سمعته ، ومنذ ذلك اليوم انتشر اسمه عبر كل مخيم في ألاسكا .

وفيما بعد ، في خريف تلك السنة ، أنقذ حياة جون ثورنتون بصورة مختلفة تماماً . كان الشركاء الثلاثة يجهزون زورقاً طويلاً وضيقاً ، هابطين به امتداداً خطراً من مساقط المياه على (فورتى مايل كريك) . تحرك هانس وبيت على الشاطئ ، عاقدين بحبل رفيع ما بين شجرة وأخرى ، في حين بقي ثورنتون في الزورق ، ممهّداً له الهبوط بواسطة عصا ، وصارخاً بالتوجيهات إلى الشاطئ . وبقي (بك) - القلق المتلهف - صدرأً لصدر مع الزورق ، على الشاطئ ، وعيناه لا تغادران سيده قط .

وعند نقطة استثنائية الخطر ، حيث كان ينتأ رف من الصخور التي تكاد تكون مغمورة بالماء نحو النهر ، أفلت هانس الحبل وركض هابطاً الضفة وفي يده طرف الحبل لكي يشد الزورق عندما يتخلص من الرف الصخري ، في حين دفع ثورنتون الزورق بالعصا إلى داخل الجدول . وقد تخلص الزورق من الرف حقاً ، وراح يطير هابطاً الجدول في تيار بقوة تيار الطواحين ، وفيما حجزه هانس بحبل ، وكان حجزه إياه مفاجئاً للغاية . انطلق الزورق إلى أعلى ، وانفتل صاعداً إلى أسفل الضفة في حين حمل ثورنتون - إذ انقذف إلى خارجه تماماً - أسفل الجدول نحو أسوأ جزء من المساقط ، وهو امتداد من الماء لا يستطيع أي سباح أن ينجو فيه .

كان (بك) قد قفز داخلاً للتو ، وعند نهاية ثلاثمائة ياردة ، وسط

دوامة مجنونة من الماء ، أخذ يتنصت لثورنتون . وعندما أحس به وهو يتمسك بذيله ، اتجه إلى الضفة ، سابحاً بكل قوته الفائقة . ولكن التقدم نحو الشاطئ كان بطيئاً ، وكان اندفاع الماء أسفل الجدول سريعاً بشكل مدهش ومن أسفل جاء الهدير المميت ، حيث كان التيار المجنون يزداد جنوناً ويتناثر إلى مزق ترش الصخور الناتئة مثل أسنان مشط هائل . كانت قوة جذب الماء المنحدر ، مخيفة . فعرف ثورنتون أن بلوغ الشاطئ كان مستحيلاً . اصطدم بسعار فوق صخرة ، وانسجج فوق ثائية ، وارتطم بثالثة بقوة ساحقة . أمسك قممها الزلقة بكلتا يديه ، معتقاً (بك) ، وفوق هدير الماء الهائج صرخ :

- « اذهب ، يا (بك) ، اذهب! » .

لم يتمكن (بك) أن يحفظ توازنه ، فانكس أسفل النهر ، مناصلاً بياس ، ولكن غير قادر أن يكسب . وعندما سمع أمر ثورنتون يتكرر ، تراجع جزئياً عن الماء ، مطوحاً رأسه عالياً ، كما لو ليلقي نظرة أخيرة ، ثم استدار مطيعاً نحو الضفة . سبح بقوة وجذبه إلى الشاطئ بيت وهانس عند النقطة التي صارت عندها السباحة مستحيلة وبدأ الدمار .

كانا يعرفان أن الوقت الذي يمكن لرجل خلاله أن يتشبث بصخرة زلقة ، في وجه ذلك التيار الكاسح ، هو مجرد مسألة ثوان ، فركضا بأسرع ما يستطيعان ، صاعدين الضفة إلى نقطة أعلى كثيراً من المكان الذي كان ثورنتون يتعلق عليه . ربطا الحبل الذي كانا يشدان به الزورق إلى رقبة (بك) وكتفيه ، محاذرين ألا يخنقه وألا يعيق سباحته في نفس الوقت ، وأنزلاه إلى التيار . انطلق بجراً ، ولكن ليس مستقيماً بما يكفي إلى داخل التيار . واكتشف (بك) الغلطة متأخراً جداً ، عندما صار ثورنتون صدرأ لصدر معه وعلى بعد مجرد عشرين حركة ، في حين أنه كان محمولاً - بصورة تبعث

على اليأس - إلى أمام متجاوزاً إياه .

شد هانس الحبل فوراً ، كما لو كان (بك) زورقاً . وإذ ضاق الحبل ، بذلك ، عليه واكتسحه التيار ، فقد قذف به تحت السطح ، وبقي تحت السطح حتى راح جسده يصفع الضفة فتم إخراجهُ . كان قد أوشك على الغرق ، فألقى هانس وبيت نفسيهما عليه ، نافخين النفس فيه وطاردين الماء من جسده ، تعثر على قدميه وتهاوى . وبلغهم الحس الخابي لصوت ثورنتون ، ومع أنهم لم يفهموا كلماته ، إلا أنهم عرفوا أن ذلك كان ذروة صوته . وفعل صوت سيده على (بك) فعل الصعقة الكهربائية . لقد قفز واقفاً وركض صاعداً الضفة أمام الرجلين إلى نقطة انطلاقه السابقة .

ومرة أخرى ربط الحبل وأنزل (بك) إلى الماء ، ومرة أخرى انطلق . ولكن هذه المرة مستقيماً إلى التيار ، كان قد أخطأ الحساب مرة ، ولا يمكنه أن يرتكب تلك الخطيئة مرة أخرى . دفع هانس الحبل دون أن يسمح بأي ارتخاء ، في حين حافظ بيت على إبقائه خالياً من العقد . تماسك (بك) حتى صار على خط مواز لثورنتون فوقه ، ثم استدار ، وبسرعة قطار سريع شق الطريق برأسه هابطاً نحوه . رآه ثورنتون يأتي ، ثم - إذ صدمه (بك) مثل مطرقة من مطارق هدم المباني - بكامل قوة التيار الذي كان وراءه - مد يديه وضمهما معاً حول العنق الأشعث . شد هانس الحبل حول الشجرة ، فانقذف (بك) و(ثورنتون) تحت الماء . مخنوقين ، مختنقين ، أحدهما إلى فوق حيناً والآخر فوقه أحياناً ، شادين فوق القعر المسنن ، منسحقين فوق الصخور والتواءات ، متجهين صوب الضفة .

ارتقى ثورنتون ، بطنه إلى أسفل ، وهزه هانس وبيت بعنف إلى وراء وإلى أمام على جذع حمله الماء . كانت نظرتة الأولى موجهة إلى (بك) ، الذي كان نيغ يطلق هريراً على جسده المرتخي والظاهر الموت ، في حين

كانت سكييت تعلق الوجه الرطب والعينين المغمضتين . كان ثورنتون نفسه مكدوماً ومهروساً ، فمضى يتحسس برفق جسد (بك) وعندما أفاق من غيبوبته ، وجدوا فيه ثلاثة أضلاع مكسورة . أعلن :

- « هذا يحل المسألة . سنخيم هنا بالضبط » . وقد خيموا ، حتى التأمت أضلاع (بك) وصار بمقدوره أن يسافر .

في ذلك الشتاء ، في داوسون ، أدى (بك) عملاً آخر ، لم يكن بتلك البطولة ، ربما ، إنما كان عملاً بطولياً رفع اسمه عدة درجات على مسألة* الشهرة الألاسكية . كان ذلك العمل مبهجاً بشكل خاص للرجال الثلاثة ، لأنهم كانوا بحاجة للمال الذي وفروه ، ومكنهم من القيام برحلة طالت الرغبة فيها إلى الشرق البكر ، حيث لم يكن رجال المناجم قد ظهروا بعد . وقد أدى إلى وقوعه حديث جرى في صالون (الدورادو) ، ازدادت فيه ادعاءات الرجال عن كلابهم المفضلة . كان (بك) ، بسبب سجله ، هدف أولئك الرجال ، وقد دفع الفخر بثورنتون إلى الدفاع عنه . وعند نهاية نصف ساعة صرح رجل بأن كلبه يمكن أن يحرك زلاجة عليها خمسمائة رطل ويسير بها ، وزعم آخر لكلبه ستمائة رطل ، وثالث سبعمائة . فقال جون ثورنتون :

- « بوه! بوه! يستطيع (بك) أن يحرك ألف رطل » .

فسأل (مائيوسون) وهو أحد ملوك المناجم ، وصاحب ادعاء السبعمائة رطل :

- « ويكسر الجليد عنها ؟ ويمشي بها مسافة مائة ياردة ؟ » ، فقال جون ثورنتون ببرود :

- « ويكسره عنها ، ويمشي بها مائة ياردة » . فقال مائيوسون ، ببطء ،

* مسألة كان يستخدمها الهنود الحمر في الأصل لنقش صور ورموز طواطمهم عليها .

وتعمد ، لكي يسمعه الجميع :

- « حسناً . إن لدي ألف دولار وهي تقول إنه لا يستطيع . ها هي » .
وإذ قال هذا ، ضرب كيساً من تراب الذهب بحجم سجق بولونا* ، على
المشرب .

لم يتكلم أحد . لقد جرى الرد على بلف ثورنتون ، إن كان ييلف . كان
بمقدوره أن يحس دماً دافئاً يزحف صاعداً وجهه . لقد ورطه لسانه . لم يكن
يدري إن كان (بك) يستطيع أن يحرك ألف رطل . نصف طن!
أخافته ضخامتها . كانت له ثقة عظيمة في قوة (بك) ، ولقد طالما اعتبره
قادراً على تحريك مثل هذا الحمل ، لكنه لم يسبق له قط أن واجه إمكانية
قيامه بذلك ، مثلما يواجه الآن ، وعيون عشرة رجال مثبتة عليه ، صامتة
تنتظر . وإضافة إلى ذلك ، فلم يكن لديه ألف دولار ، ولا كان لدى هانس أو
بيت .

واستمر ماثيوسون بتحديد قاس :

- « إن لدي زلاجة تقف بالخارج الآن ، وعليها عشرون كيس طحين من
ذوات الخمسين رطلاً ، وهكذا : فلا تجعل هذه المسألة تعوقك » .

لم يرد ثورنتون ، لم يكن يعرف ما يقول . نقل بصره من وجهه إلى
وجهه ، فعل رجل فقد قوة التفكير فراح يبحث عن المكان الذي يجد فيه
الشيء الذي يعيدها إلى العمل . فظهر أمام عينيه وجه (جيم أوبراين) ، وهو
ملك مناجم بحجم الفيل ورفيق قديم . كان وجهه خافراً له ، وبدا كأنه يشيره
ليفعل ما لم يكن ليحلم بالقيام به . فسأل بهمس تقريباً :

- « أتستطيع أن تقرضني ألفاً » . فرد أوبراين ، وهو يطرح كيساً
منتفخاً إلى جانب كيس ماثيوسون :

* النسبة إلى بولونا في إيطاليا . وسجقها كبير الحجم .

- « بالتأكيد . مع أن ما لديّ من ثقة قليل ، يا جون ، بأن بمقدور ذلك الحيوان أن يلعب اللعبة » .

أفرغ اللودورادو رواده إلى الشارع كي يروا الامتحان . هُجرت المناضد ، وتقدم التجار ومسؤولو الألعاب ليروا نتيجة الرهان و يقيموا مراهنات خاصة بهم . تراصف بضع مئات من الرجال ، متلفعين بالفراء مكسوي الأيدي بالقفازات ، على بعد قريب إلى جانبي الزلاجة . كانت زلاجة مائوسون ، المحملة بألف رطل من الدقيق ، تقف منذ ساعتين ، وفي البرد المطبق (كانت درجة الحرارة ستين تحت الصفر) تجمدت ألواح التزلج لتثبت مندمجة بالجليد الصلب المرصوص . عرض الرجال اثنين مقابل واحد على أن (بك) لن يستطيع أن يحرك الزلاجة . ونشأ جدال لغوي فيما يتعلق بكلمة « يكسر » . جادل أوبراين بأن من حق ثورنتون أن يرخي لوحه الانزلاق ، تاركاً (بك) « يكسر عنها فيحررها » من نقطة سكون ميتة . وأصر مائوسون على أن العبارة تشمل تحرير اللوحين من قبضة الجليد المتجمدة . وكان قرار أغلبية الرجال ، الذين شهدوا انعقاد الرهان ، لصالحه ، فارتفع الرهان إلى ثلاثة مقابل واحد ضد (بك) .

لم يكن ثمة من يراهن . لم يكن أحد ليعتقده قادراً على العمل العظيم . كان ثورنتون قد سيق إلى الرهان على عجل ، مثقلاً بالشك . والآن - إذ هو أمام الزلاجة مباشرة ، أمام الحقيقة الملموسة ، والفريق الاعتيادي المكون من عشرة كلاب تتحلق في الثلج أمامها - ازداد اتضاح استحالة المهمة أمامه . وراح مائوسون يشع انتصاراً . أعلن :

- « ثلاثة إلى واحد! سأضع أمامك ألفاً أخرى على ذلك الرقم ، يا ثورنتون . ماذا تقول ؟ » .

كان شك ثورنتون يلوح قوياً في وجهه ، ولكن روحه القتالية قد أثيرت

- روح القتال التي تخلق فوق نسب الرهان ، ولا تفهم المستحيل ، والصماء
تجاه كل شيء ، عدا ضجيج المعركة . استدعى هانس وبيت إليه . كان
كيساهما نحيلين ، ومع كيسه لم يستطع الشركاء الثلاثة أن يجمعوا معاً غير
مائتي دولار . عند جزر حظوظهم ، كان هذا المبلغ كل رأسمالهم ، ومع ذلك
فقد وضعوه مترددين ضد ستمائة مائوسون .

جرى فك وثاق فريق العشرة الكلاب ووضع (بك) ، بسرافته الخاصة ،
أمام الزلاجة . كان قد التقط عدوى الانفعال . وشعر أنه ، بشكل ما ، ينبغي
أن يفعل شيئاً عظيماً لجون ثورنتون . تصاعدت همهمات الاعجاب بمظهره
الممتاز . كان في أتم حال ، ليست عليه أوقية من اللحم الزائد ، وكانت المائة
والخمسون الرطل التي يزنها مائة وخمسين رطلاً من الصلابة والفحولة . كان
معطفه الفراني يشع ببريق الحرير . وأسفل الرقبة ، عبر الكتفين ، كان شعر
عنقه - عندما كان يسترخي طلباً للراحة - يقف ويبدو كأنه يرتفع مع كل
حركة ، كما لو أن زيادة الحيوية تجعل كل شعرة منفردة حية وفاعلة . لم يعد
الصدر العظيم والقائمتان الأماميتان الثقيلتان تتناسب مع باقي الجسد ، حيث
كانت العضلات تظهر في طيات شديدة تحت الجلد ، تحسس رجال تلك
العضلات فأعلنوا أنها كالحديد ، فهبط الرهان إلى اثنين مقابل واحد .

وقال أحد أعضاء السلالة الأخيرة ، أحد ملوك مناجم الذهب الكبرى ،
وهو يتوقف عن الكلام بين آونة وأخرى :

- « الله ، يا سيدي! الله ، يا سيدي! إنني أعرض لك ثمانمائة فيه ، يا
سيدي ، قبل الاختبار . يا سيدي ، ثمانمائة كما هو تماماً » .

هز ثورنتون رأسه وتقدم إلى جانب (بك) . فاحتج مائوسون :

- « يجب أن تقف بعيداً عنه . لعب نظيف ، ومكان واسع » .

خيم على الجمهور صمت ، ولم يعد يسمع غير صوت المقامرین

يعرضون - خائبين - اثنين مقابل واحد . اعترف الجميع بـ(بك) حيواناً رائعاً ، ولكن عشرين كيس دقيق من ذوات الخمسين رطلاً كانت أكبر في عيونهم من أن ترخي خيوط أكياس نقودهم .
ركع ثورنتون إلى جانب (بك) . أخذ رأسه بيديه وأراح الوجنة على الوجنة . لم يهزه ملاحظاً ، كما كانت عادته ، أو يهمهم بلغات حب ناعمة ، ولكنه همس في أذنه . كان ما همس به :
- « كما تحبني ، يا (بك) ، كما تحبني » . فراح (بك) يتملق بلهفة مكبوتة .

كان الجمهور يراقب بفصول . كان الأمر يزداد غموضاً . كان يبدو مثل السحر . وفيما نهض ثورنتون على قدميه ، أمسك (بك) بيده المغلفة بالقفاز بين فكيه ، ضاغطاً إياها بأسنانه ومطلقاً إياها ببطء ، بشبه تحفظ . كان ذلك هو الجواب ، لا بالكلام ، بل بالحب . تراجع ثورنتون بعيداً إلى الوراء ، وقال :
- « الآن ، يا (بك) » .

شد (بك) الأعنة ، ثم أرخاها بضع بوصات . كانت تلك هي الطريقة التي تعلمها . ورن صوت ثورنتون ، حاداً في الصمت الشامل :
- « امض ! » .

مال (بك) إلى اليمين ، منهياً الحركة بطفرة وترت الارتخاء وينترة مفاجئة أوقفت أرتاله المائة والخمسين . اهتز الحمل ، ومن تحت لوحى الانزلاق ارتفع صوت تهشم حاد . وأمر ثورنتون :
- « هاو ! » .

كرر (بك) المناورة ، إلى اليسار هذه المرة . تحول صوت التهشم إلى صوت طحن ، بينما كانت الزلاجة تهتز واللوحان ينزلقان ويحكان بضع

بوصات إلى جانب . لقد انكسر الجليد عن الزلاجة . كان الرجال يسكون
أنفاسهم ، غير واعين - من الذهول - تلك الحقيقة :
- «الآن ، انطلقا» .

دوى أمر ثورنتون كطلقة مسدس . رمى (بك) نفسه إلى أمام ، شاداً
الأعنة بوخزة زاعقة . تجمع كل بدنه مرصوصاً معاً في الجهد الهائل ،
والعضلات تتلوى وتنحاك مثل أشياء حية تحت الفراء الحريري . كان صدره
العظيم منخفضاً إلى الأرض ، ورأسه إلى أمام وأسفل ، في حين كانت أقدامه
تتطاير مجنونة ، ومخالها تجرح الجليد المرصوص صكاً في خطوط متوازية .
اهتزت الزلاجة وارتعشت ، ونصف حركة تحركت إلى أمام . زلقت إحدى
قدميه ، فحشرج رجل بصوت عال . ثم انسَلَّت الزلاجة قدماً فيما بدا تتابع
نترات سريعة ، مع أنها لم تقف ثانية حقاً . . نصف بوصة . . بوصة . .
بوصتان . . . تلاشت النترات بشكل ملحوظ فيما حصلت الزلاجة على قوة
اندفاع ، وجمعها (بك) حتى راحت تتحرك باضطراب .

ففر الرجال أفواههم وبدأوا بتنفسون ثانية ، غير مدركين أنهم كفوا
دقيقة عن التنفس . كان ثورنتون في الورا ، يشجع (بك) بكلمات قصيرة
مرحة . قيست المسافة ، وفيما اقترب من كومة خشب الوقود التي كانت
نهاية المائة ياردة ، بدأ صراخ يعلو ، ثم انفجر في زئير عندما اجتاز كومة
الخشب ووقف بناء على أمر صادر . كان كل رجل يطلق لنفسه العنان ، حتى
ماثيوسون . كانت القبعات والقفايزات تتطاير في الهواء . كان الرجال
يتصافحون ، لا يهتم مع من ، ويدوون في لفظ ، غير مترابط ، عام .

ولكن ثورنتون هوى على ركبتيه إلى جانب (بك) . كان الرأس على
الرأس ، وكان يهزه إلى أمام وإلى وراء . وقد سمع أولئك الذين أسرعوا
مقربين ، سمعوه يشتم (بك) ، ولقد شتمه طويلاً وبحرارة ، وناعماً وبمحنة .

وراح عضو السلالة الأخيرة ، ملك المناجم الكبرى ، يهذر :
- « يا رب ، يا سيدي! يا إلهي ، يا سيدي! سأعطيك به ألفاً ، يا سيدي ، ألفاً ، يا سيدي - ألفاً ومائتين ، يا سيدي » .
نهض ثورنتون على قدميه . كانت عيناه مبللتين . كانت الدموع تجري بشكل ظاهر فوق وجنتيه . فقال لملك المناجم الكبرى :
- « سيدي ، كلا يا سيدي . يمكنك أن تذهب إلى الجحيم ، يا سيدي .
ذلك خير ما أستطيع أن أفعله لك يا سيدي » .
أمسك (بك) يد ثورنتون بأسنانه . هزه ثورنتون إلى وراء وإلى أمام .
وكما لو أن المتفرجين قد تحركوا بباعث مشترك ، فقد انسحبوا إلى مبعدة
تحفظ الاحترام ، ولم يعودوا غير متحفظين مرة أخرى بحيث يتطفلون .

٧- تردد النداء

عندما حصل (بك) على ألف وستمئة دولار لجون ثورنتون خلال خمس دقائق ، مكن سيده من تسديد ديون معينة نتجت عن السفر مع شريكه متوغلاً في الشرق سعياً وراء منجم مفقود أسطوري ، كان تاريخ الكنز بنفس قدم تاريخ البلاد . كان عدة رجال قد بحثوا عنه ، وقد وجدته قلة منهم ، وكان أكثرهم لم يعودوا قط من البحث . كان هذا المنجم المفقود قد انغمز بالمأساة وتلفع بالغموض . لم يكن أحد ليعرف قط الرجل الأول . إن أقدم رواية تتوقف قبل أن تبلغه ، منذ البداية كانت ثمة مقصورة عتيقة ومتداعية . وكان رجال محتضرون قد أقسموا على وجودها ، وعلى وجود المنجم الذي كان موقعها يدل عليه ، معززين شهاداتهم بكتل ذهبية لا تشبه أية درجة معروفة من الذهب في الشمال .

ولكن لم ينهب بيت الكنز ذاك أي إنسان حي ، وكان الموتى موتى ، في حين أن جون ثورنتون وبيت وهانس ، مع (بك) ونصف دزينة أخرى من الكلاب ، اتجهوا نحو الشرق على طريق مجهول ليفوزوا بما أخفق في أن يحققه رجال وكلاب جيدون مثلهم . زحفوا صاعدين ال(يوكون) سبعين ميلاً ، والتفوا يساراً إلى نهر (ستيورات) ، وعبروا ال(مايو) وال(ماك كويستشن) ، وواصلوا حتى أصبح الستيورات نفسه جدولاً صغيراً ، متضائلاً

ليصير كالخيط وهو يعبر القمم الناهضة التي تؤشر إلى العمود الفقري للقارة .
كان جون ثورنتون قليل الطلب من الناس ومن الطبيعة . لم يكن يخشى
الوحوش . كان يمكنه ، بحفنة من الملح وبندقية ، أن يخوض في الخلاء
الموحش ويسافر حيث يحب وبقدر ما يحب . وإذا لم يكن مستعجلاً ، فقد
كان يصطاد - شأنه شأن الهنود - عشاءه أثناء سفر النهار ، وإن أخفق في
الحصول عليه ، كالهنود ، كان يستمر في السفر ، مطمئناً إلى معرفته بأنه
سيعثر عليه إن عاجلاً أو آجلاً . وهكذا ، فأثناء هذه السفرة العظيمة إلى
الشرق ، كان اللحم الخالص هو لائحة الطعام ، وكانت الذخيرة والعدة هي
المكونات الرئيسة لحمل الزلاجة ، وكانت بطاقة الوقت مرسومة على المستقبل
اللا محدود .

كان ذلك بهجة لا محدودة لـ(بك) ، هذا الصيد وصيد الأسماك والتجوال
غير المقيد وعبر الأماكن الغريبة . طيلة أسابيع في كل مرة ، كانوا يواصلون
بإطراد ، يوماً بعد يوم ، وطوال أسابيع متواصلة كانوا يخيّمون ، هنا
وهناك ، الكلاب تتسكع والرجال يحرقون الفجوات عبر قاذورات وحصى
متجمدة ويغسلون أوعية عديدة مصنوعة من التراب بحرارة النار . أحياناً ،
كانوا يمشون جانعين ، وكانوا يأكلون بصخب أحياناً ، كان ذلك وفقاً لوفرة
الطرائد وحظ الصيد . وحل الصيف ، وشد الكلاب والرجال على ظهورهم
أمتعة ، وانتقلوا بالعبارات عبر بحيرة جبلية زرقاء وصعدوا أو هبطوا أنهاراً
مجهولة في زوارق نحيلة قطعت أخشابها من الغابة القائمة .

كانت الشهور تأتي وتذهب ، وكانوا يدورون ويلتفون وراء وأمام عبر
الاتساع اللا محدود ، حيث لم يكن ثمة رجال وحيث - مع ذلك - كان ثمة
رجال إن كانت المقصورة المفقودة حقيقة . انتقلوا عبر مفترقات مياه في رياح
صيفية ، وارتعشوا تحت شمس نصف الليل على الجبال الجرداء بين خط الغابة

والثلوج الأبدية ، وهبطوا إلى وديان صيفية وسط بعوض وذباب حاشد . وفي ظلال الثلجات* كانوا يلتقطون التوت الشوكي والورود الناضجة والحلوة بقدر ما يمكن للجنوب أن يباهي بتوته ووروده . وفي خريف السنة كانوا يتوغلون في ريف غريب من بحيرات ، حزين وصامت ، حيث كانت تحوم الطيور البرية ، ولكن حيث لم تكن - حينئذ - أية حياة أو علامة على وجود الحياة . غير صفيير الرياح الباردة ، وطبقات الجليد في الأماكن المضللة ، والتكسر الحزين للأمواج على الشواطئ المهجورة .

وخلال شتاء آخر تجولوا فوق الطرق الممحوّة للرجال الذين مضوا من قبل . وذات مرة ، مروا بممر محروق عبر الغابة ، ممر عتيق ، ويدت المقصورة المفقودة قريبة جداً . ولكن الممر بدأ من لا مكان ولم ينته إلى مكان ، وبقي غموضاً ، كما بقي الرجل الذي أعده والسبب الذي أعده من أجله غموضاً . ومرة أخرى صادف أن صاروا فوق الحطام الذي نحتته الزمن لمقصورة صيد ، ووسط خرق البطانيات الممزقة وجد جون ثورنتون بندقية حجرية ذات اسطوانة طويلة . ميز فيها بندقية من إنتاج شركة (هدسون باي) لأيام الصبا في الشمال الغربي ، حيث كانت مثل هذه البندقية تساوي في قيمتها وزنها من جلود الخنوص المرزومة وهي مبسطة . وكان ذلك كل ما وجده - دون أثر للرجل الذي أنشأ ذات يوم سابق المقصورة وترك البندقية بين البطانيات . وحل الربيع ثانية ، وعند انتهاء كل تجوالهم وجدوا - لا المقصورة المفقودة فقط ، ولكن - مستقراً ضحلاً للماء الذي يحمل المعدن في واد عريض ، حيث كان الذهب يشع مثل الزبدة الصفراء عبر قعر إناء الفسيل . لم يفتشوا أبعد من ذلك . كان كل يوم يشتغلونه يؤدي بهم إلى كسب آلاف الدولارات في شكل تراب معدن نظيف ، كانوا يشتغلون كل يوم . وكان يتم

* الثلج الذي يتجمع ولا يذوب لأنه يكون في مناطق يتقاط فيها الجليد فيتجمع بأرع مما يذوب الساقط قبله .

تكيس الذهب في حقائب من جلد بقر الوحش ، خمسين رطلاً في الحقيبة الواحدة ، ويكومونه مثل خشب الوقود المتراكم خارج مقصورة الجذوع المنمقة . كدحوا كالعائلة ، والأيام تدرج في أعقاب الأيام كالأحلام ، فيما كانوا يرفعون كومة الكنز أعلى فأعلى .

لم يكن على الكلاب أن تفعل شيئاً ، غير ابتلاع اللحم الذي كان يصطاده جون ثورنتون ، بين آونة وأخرى ، وكان (بك) يقضي ساعات طوالاً شارد الذهن عند النار . كانت صورة الرجل قصير الساقين ، المشعر ، تأتية باضطراب ، بينما كان أمامه عمل أقل الآن ، وغالباً ما تجول معه - وهو يرمش إلى جانب النار - في ذلك العالم الآخر الذي كان يتذكره .

كان الشيء البارز من ذلك العالم الآخر هو الخوف فعندما كان (بك) يراقب الرجل المشعر نائماً إلى جانب النار ، ورأسه بين ركبتيه ويده مشبكتان فوقه ، كان يراه نائماً دون ارتياح ، يقوم بعدة حركات وصحوات ، وهي الأوقات التي كان يتطلع أثناءها ، بخوف ، في الظلمة ويبقي مزيداً من الخشب في النار . وإذا كانوا يسيرون على شاطئ البحر ، كان الرجل المشعر يجمع صدف المحار ويأكل المحار فيما هو يجمع ، فيما كانوا يفعلون ذلك بعيون تنهب كل مكان بحثاً عن خطر خفي ، ويسيقان مستعدة لأن تجري كالريح عند أول ملمح لذلك الخطر . عبر الغابة راحوا يزحفون دون ضوضاء ، و(بك) عند عقبي الرجل المشعر ، كانا متيقظين وحذرين ، كلاهما ، آذانهما تتخطف وتتحرك ومناخرهما ترتعش ، لأن الرجل كان من حدة السمع والشم كما هو (بك) . كان بمقدور الرجل المشعر أن يقفز إلى داخل الأشجار ويسافر قدماً بأسرع ما يمكن على الأرض ، متحركاً عند الذراعين من طرف لطرف ، وأحياناً رغم ابتعاد طرفيه عن بعضهما عشرة أقدام ، يمسك الأغصان ويفلتها ، دون أن يسقط قط ، دون أن تضع قبضته .

وفي الحقيقة ، كان يبدو في مكانه الطبيعي وهو بين الأشجار بقدر ما يبدو كذلك على الأرض ، وكانت له (بك) ذكريات عن ليال من الحذر قضاهها تحت الأشجار حيث استقر الرجل المشعر ، متمسكاً بشدة فيما كان نائماً .

وقريباً بشكل وثيق من رؤى الرجل المشعر ، كان النداء الذي لا يزال يتردد في أعماق الغابة . وقد جعله ذلك يحس سروراً غائماً حلواً ، وكان يدرك الالتئاعات والميول الوحشية لسبب لا يعرفه . وأحياناً كان يتبع النداء إلى الغابة ، ناظراً إليه كما لو كان شيئاً ملموساً ، وهو ينبج بنعومة أو بجراً ، كما كان المزاج يفرض . كان يدس أنفه في الأعشاب الباردة ، أو في التربة السوداء حيث كانت الأعشاب الطويلة تنمو ، وينخر بفرح في روائح الأرض السمينة ، أو أنه كان يقمي ساعات ، كما لو كان يختفي ، وراء جذوع الأشجار الساقطة المغطاة بالفطر متسع العينين متسع الأذنين نحو كل ما كان يتحرك ويحدث صوتاً حوله . ربما كان ، وهو يتمدد كذلك ، يأمل أن يفاجئ ذلك النداء الذي ما كان ليفهمه . ولكنه لم يكن يدري لم كان يفعل تلك الأشياء المختلفة . كان مضطراً للقيام بها ، ولم يفكر فيها قط .

تملكته دوافع لا تقاوم . كان يحدث أن يكون مستلقياً في المخيم ، مقيلاً بكسل في حرارة النهار ، عندما يرتفع رأسه فجأة وتنصب أذناه ، مركزتين ومصغيتين ، فكان يقفز واقفاً وينطلق بعيداً ، مستمراً ومستمراً ، طوال ساعات ، عبر نياسم الغابة وعبر الفضاءات المكشوفة حيث كانت الصخور المدورة السوداء تبرز ناتئة . كان يعيش الجري هابطاً مع مجاري المياه الجافة ، والزحف والتجسس على حياة الطيور في الغابات . وطوال نهار كامل كل مرة كان يستلقي بين الأجمة حيث كان بمقدوره أن يراقب الدراج وهو يخفق ويتبختر صعوداً وهبوطاً . ولكنه كان يعيش على الخصوص أن يعدو في شبه

عتمة منتصف ليالي الصيف ، مصفياً إلى همهمات الغابة المتلاشية والناعسة ، قارئاً العلامات والأصوات كما يقرأ الإنسان كتاباً ، وباحثاً عن شيء ما غامض كان ينادي ، يناديه أن يأتي ، سواء أكان مستيقظاً أم نائماً ، وفي كل الأوقات .

ذات ليلة نهض من نومه مجفلاً ، متلهف العينين ، ومنخراه يرتعشان ويتشسمان ، وعرفه يقف في أمواج متذبذبة . من الغابة جاء النداء (أو إحدى صيحاته . لأن النداء كان متعدد الصيحات) ، ميمزاً ومحددا عما كان سابقاً تماماً - عواء مجروراً طويلاً مثل - ومع ذلك لم يكن مثل - أية ضجة يحدثها كلب هوسكي . وكان يعرفه ، بالطريقة القديمة المألوفة ، بوصفه صوتاً مسموعاً من قبل . قفز عبر خيمة النوم ، وبعدهو سريع انطلق عبر الغابة . وفيما اقترب من الصرخة راح يبطئ ، يحذر في كل حركة ، حتى جاء إلى مكان مفتوح بين الأشجار ، وإذا نظر إلى الخارج رأى ذئب غابات طويلاً نحيلاً ، منتصباً على أربع ، وأنفه يشير إلى السماء .

لم يكن قد أحدث ضجة ، ومع ذلك كف الذئب عن عوانه وحاول أن يتحسس حضوره . انسل (بك) متلصصاً إلى العراء ، نصف مقع ، وقد تجمع جسده متماسكاً ، مستقيم الذئب متصلبه . وقدماه تسقطان بعناية غير مألوفة . كانت كل حركة تعلن عن تهديد وتعبير عن صداقة متشابكين ، كانت الهدنة المهددة هي التي تؤشر لقاء الوحوش الضارية التي تفترس . ولكن الذئب هرب عند مرآه . تبعه ، بقفزات متوحشة ، في سعار للحاق . تبعه إلى ممر مسدود ، في حوض الجدول ، حيث كان نتوء خشب يسد الطريق . دار الذئب حول نفسه ، مرتكزاً على قوائمه الخلفية على طريقة (جو) وكل كلاب الهوسكي حين تنحصر في زاوية ، عاوياً قافاً اشعر صاراً أسنانه معاً في تتابع للمضات مستمر وسريع .

لم يهاجم (بك) ، ولكنه أحاطه وطوقه إلى الداخل بملاطفاته الودية . كان الذنب مرتاباً وخائفاً ، لأن (بك) كان يعادله ثلاث مرات وزناً ، في حين كان رأسه بالكاد يبلغ كتف (بك) . وإذا كان يبحث عن فرصته ، فقد فرّ مبتعداً ، واستؤنفت المطاردة . انحصر في زاوية مرة واحدة ، وتكرر ذلك . ومع أنه كان في حالة مزرية إلا أن (بك) ما كان ليتمكن من التغلب عليه ببسر . كان يركض حتى يصير رأس (بك) بمستوى ساقه ، حيث يدوم حوله في الأرض الخلاء ، لا شيء ، إلا لينطلق ثانية عند أول فرصة .

ولكن في النهاية كوفئت مثابرة (بك) ، لأن الذنب - حين وجد أنه لم يكن يقصد أي أذى - أخيراً راح يشم أنفه . ثم تواددا ، وراحا يلعبان بالطريقة العصبية ، نصف الحية ، التي تخفي بها الوحوش الضارية ضراوتها ، وبعد هذا بوقت قصير بدأ الذنب يتعد بخطوات طويلة يسيرة بكيفية كانت تبين بوضوح أنه كان ذاهباً إلى مكان ما . وبين لـ(بك) بصورة واضحة أنه مسموح له المجيء ، فركضا جنباً إلى جنب عبر شبه العتمة الداكنة ، صاعدين حوض الجدول باستقامة ، إلى المنخفض الذي كان ينبع منه ، وعبر منشعب الماء المفتوح الذي كان يأخذ منه ارتقاءه .

وعلى المنحدر المقابل لمسقط الماء هبطا إلى ريف مستو كانت فيه امتدادات عظيمة من الغابة وجدول عديدة ، وخلال هذه الامتدادات العظيمة راحا يركضان باتزان ، ساعة بعد ساعة ، والشمس تشرق أعلى فأعلى والنهار يزداد دفناً . سر (بك) بوحشية . كان يعرف أنه يرد أخيراً على النداء ، جارياً إلى جانب شقيقه في الغاب نحو المكان الذي كان يأتي منه النداء بالتأكيد . كانت ذكريات قديمة تأتيه سريعاً ، وكان يستجيب لها كما كان يستجيب في الماضي للوقائع التي كانت هذه الذكريات ظلالتها . كان قد فعل هذ الشيء قبلاً ، في مكان ما من ذلك العالم الآخر الغائم الذكرى ، وها

هو يفعلهُ ثانية ، الآن ، إذ يجري حرّاً في العراء ، والأرض المضغوطة تحت قدميه ، والسماء الواسعة فوق رأسه .

وقفا عند جدول جارٍ ليشربا ، وإذ وقف (بك) ، فقد تذكر جون ثورنتون . جلس . انطلق الذئب نحو المكان الذي كان النداء ولا شك يأتي منه ، ثم عاد إليه ، متشمماً أنفه ومؤدياً حركات كما لو كان يشجعه . ولكن (بك) استدار واتجه بطيئاً نحو الممر الخلفي . وطوال ساعة تقريباً كان الشقيق الوحشي يركض إلى جانبه ، يئن بنعومة . ثم جلس ، ورفع أنفه إلى أعلى ، وهزّ . كان هريراً حزيناً ، وإذ واصل (بك) باستمرار طريقه ، سمعه يخبو ويخبو حتى ضاع في البعيد .

كان جون ثورنتون يتناول العشاء عندما اندفع (بك) إلى المخيم وقفز عليه في سعار من الهيام ، قابلاً إياه ، زاحفاً فوقه ، لاعتقاً وجهه ، عاضاً يده - « عارضاً الحماسة العامة » ، كما كان جون ثورنتون يصف ذلك - فيما كان هو يهز (بك) إلى أمام وإلى وراء ، ويشتمه بمحبة .

طيلة يومين وليلتين لم يغادر (بك) المخيم ، لم يترك ثورنتون يبتعد عن ناظريه . كان يتبعه في عمله ، يراقبه وهو يأكل ، يراه عندما يلتف ببطانياته مساءً وعندما يخرج منها في الصباح ، ولكن بعد يومين بدأ النداء في الغابة يرن بإلحاح أكثر من السابق . وعاد (بك) قلقه ، وسكنته ذكريات الشقيق الوحشي ، وذكريات الأرض الباسمة وراء المنشعب والركض جنباً إلى جنب عبر امتدادات الغابة الوسيعة . مرة أخرى انصرف إلى التجوال في الغابة ، ولكن الشقيق الوحشي لم يأت ثانية ، ومع أنه أصغى عبر اليقظات الطويلة ، إلا أن العواء الحزين لم يرتفع قط .

بدأ ينام في الخارج ليلاً ، باقياً خارج المخيم عدة مرات . وذات مرة اجتاز منشعب الماء عند رأس الجدول وهبط إلى أرض الخشب والجدول .

هناك بقي يتجول أسبوعاً . باحثاً دون جدوى عن علامة جديدة للأخ الوحشي ، قاتلاً لحمه وهو يسافر ويسافر بخطوات طويلة يسيرة كان يبدو أنها لا تتبعه قط . اصطاد السالمون* من جدول عريض كان يصب في مكان ما بالبحر ، وإلى جانب هذا الجدول قتل دُباً أسود كبيراً ، أعماه البعوض حينما كان يصطاد السمك هو الآخر فانطلق عبر الغابة يائساً ومرتباً . وحتى في تلك الحال ، كان القتال صعباً ، وقد أثار آخر البقايا الكامنة من ضراوة (بك) . وبعد يومين ، عندما عاد إلى ضحيته وجد عشر بنات آوى تتعارك على ما اغتصبت ، بعثرها وكأنها قش . . وخلف المنهزمون وراءهم اثنين لن يتعاركا بعد قط .

اشتد الاشتياق للدم كثيراً عن السابق . صار قاتلاً ، شيئاً مفترساً ، يحيا على الأشياء الحية ، لا يساعده أحد ، وحيداً ، بفضل قوته ومقدرته ذاتهما ، باقياً بانتصار في بيئة معادية لا يبقى فيها غير القوي . وبسبب هذا كله صار يتملكه فخر عظيم بذاته ، ويربط نفسه بوجوده المادي مثل مرض . ولقد أعلن عن نفسه في كل حركاته ، وكان يتجلى في لعبة كل عضلة ، ويتحدث ببساطة كما الحديث بالطريقة التي كان يحمل فيها نفسه ، فيجعل معطفه الفرائي العظيم أكثر عظمة ، إن كان ذلك ممكناً . ولكن بسبب البقعة البنية المنعزلة على بوزه وفوق عينيه ، وبسبب كتلة الشعر الأبيض التي كانت تنساب إلى الوسط نازلة فوق صدره ، كان يمكن أن يخطئه الرائي فيظنه ذنباً عملاقاً أكبر من أكبر كلاب سلالاته . لقد ورث من أبيه (السان برنار) الحجم والوزن ، ولكن أمه (الرعوية) هي التي منحت حجمه ووزنه شكلاً . كان بوزه البوز الذنبي الطويل ، فيما عدا أنه كان أوسع من بوز أي ذنب ، وكان رأسه ، الأعرض نوعاً ما ، هو رأس الذنب على نطاق ضخم .

* السمك الصغير ، المعروف .

كانت جرأته جرأة ذئب ، وجرأة وحشية ، وكان ذكاؤه ذكاء كلب راع وذكاء كلب سان برنار ، كل هذا ، زائداً خبرة اكتسبت في أضرى المدارس ، هي التي جعلته مخلوقاً مخيفاً بقدر إخافة أي مخلوق يجتاح البداءة . الحيوان المفترس ، والذي يحيا على حمية من اللحم الخالص ، كان في أقصى ازدهاره ، عند المد الأعلى لحياته ، يفيض حيوية وعراماً . عندما كان ثورنتون يمد يداً معانقة على ظهره ، وتتلو اليد طقطقة وهسيس ، كانت كل شعرة تفرغ مغناطيسيتها الخاصة عند الاتصال . كان كل جزء ، الذهن والجسد ، شعرة حس أو نسيج ، مفتاحاً للأعماق الأكثر تفرداً ، وبين كل الأجزاء كان ثمة توازن كامل أو تكيف تام . أما المناظر والأصوات والأحداث التي تتطلب عملاً فكان يستجيب لها بسرعة كالومض . إن السرعة التي يمكن لكلب هوسكي أن يقفز لكي يحتمي من هجوم أو ليهجم ، كان هو يقفز بضعفها سرعة . كان يرى الحركة أو يسمع الصوت ، فيستجيب في وقت أقل مما يتطلبه كلب آخر لاستيعاب مجرد الرؤية أو السماع . كان يتأمل ويقرر ويستجيب في نفس اللحظة . وفي الحقيقة ، كانت الأعمال الثلاثة : من تأمل وقرار واستجابة ، تتابعية ، ولكن الفترات الزمنية بينها كانت من الضالة بحيث كانت تبدو متزامنة . كانت عضلاته محملة أكثر من اللازم بالحيوية ، ومتحفزة للعمل بحدة ، مثل نوابض فولاذية . كانت الحياة تجري عبره في فيض باهر ، فرحة وعارمة ، حتى لكانت تبدو أنها ستفجره حتى يتناثر في شبق مجرد ، فتنهمر مندلقة بسخاء على العالم .

- « لم يحدث قط أن وجد كلب كهذا » ، قال ذلك جون ثورنتون ذات

يوم ، فيما كان الشركاء يراقبون (بك) وهو يخرج من المخيم . فقال بيت :

- « عندما تم صنعه ، انكسر القلب » . وأكد هانس :

- « بحق الله! أظن ذلك أنا نفسي » .

رأوه يخطو خارجاً من المعسكر ، ولكنهم لم يروا التحول الآنّي والرهيب الذي وقع له بمجرد أن دخل غموض الغابة . لم يعد يخطو ، لقد صار للتو شيئاً وحشياً ، ينسل بنعومة ، بإقدام القطط ، ظلاً عابراً كان يظهر ويختفي بين الظلال . كان يعرف كيف يستفيد من كل غطاء ، أن يزحف على بطنه كالأفعى وأن ينط كالأفعى فيضرب . كان بمقدوره أن يأخذ حمامة بريّة من عشها ، وأن يقتل أرنباً وهو نائم ، وأن يلقف - في الهواء - الحيوانات الصغيرة عندما تتأخر ثانية واحدة في هروبها نحو الأشجار . ولم تكن الأسماك ، في البحيرات المكشوفة - سرية جداً عليه ، كما لم تكن السناجب - حين تصلح أعشاشها - شديدة الحذر بالنسبة له . كان يقتل لبأكل ، لا بطراً ، ولكنه كان يفضل أن يأكل ما يقتله هو نفسه . وهكذا ، فقد كان مزاج متوثب يتخلل أفعاله ، وقد كان من دواعي سروره أن يتلصص على السناجب وعندما يوشك أن يجعلها في قبضته يتركها تنطلق ، مصوّة بخوف مميت ، إلى ذرى الأشجار .

وفيما تقدم الخريف ، صار الوعل البري يظهر بكثرة أكبر ، متحركاً ببطء ليلاقي الشتاء في الوديان الأوطأ والأقل عرامة . كان (بك) قد سحب إلى أدنى عجلاً فتياً ، منفرداً ، ولكنه كان يتمنى - بقوة - طريدة أكبر وأصعب منالاً ، وقد لقيها ذات يوم على منشعب الماء عند رأس الجدول . كانت عصابة من عشرين وعلاً برياً عبرت نحوه من أرض الجداول والخشب ، وكان زعيمها وعلاً ضخماً . في مزاج متوحش ، كان - وهو يقف مرتفعاً ستة أقدام عن الأرض - خصماً على قدر من الرهبة أكثر مما كان (بك) يرغب . إلى وراء وإلى أمام شمر الوعل قرنيه المتشابكين المتشعبين العظيمين ، المتفرعين إلى أربعة عشر فرعاً ، يعانقان السبعة أقدام بأطرافهما . كانت عيناه الصغيرتان تتحرقان بضياء حاقّد ومريّر ، في حين

كان يخور مسعوراً لمرأى (بك) .

من جانب الوعل ، أمام الساق تماماً كان يبرز طرف سهم مريش ، الأمر الذي كان مبعث توحشه . ومساقاً بتلك الغريزة التي كانت تأتي من أيام الصيد القديمة للعالم الموغل في البداءة ، انطلق (بك) ليعزل الوعل عن القطيع . لم تكن تلك مهمة هينة ، كان ينبج ويرقص في كل مكان أمام الثور ، خارج مدى القرون العظيمة والخوافر العريضة الرهيبة التي كان بمقدورها أن تهرسه فتطرد منه الروح بضربة واحدة . وإذا كان الوعل عاجزاً عن إدارة ظهره للخطر ذي الأنياب والمضي لسبيله ، فإنه كان ينساق إلى نوبات عارمة من الغضب . في مثل تلك اللحظات كان يهاجم (بك) ، الذي كان يتراجع بحذر محترف ، جاعلاً إياه يطمع فيه بعجز مصطنع عن الفرار ، ولكن عندما جرى عزله بتلك الصورة عن زملائه ، انبرى وعلان أو ثلاثة من الأصغر سناً يهاجمون (بك) فيمكنون الوعل الجريح من الانخراط ثانية في القطيع .

ثمة صبر للوحش - لجوج ، عديم التعب ، مصرّ كالحياة ذاتها - هو الذي يبقي العنكبوت عديم الحراك ، ساعات لا تنتهي ، في نسيجه ، والحية في طياتها ، والفهد في مكمنه ، هذا الصبر يخص الحياة عندما تصطاد قوت حياتها ، وكان يخص (بك) وهويتشبت بأطراف القطيع ، معيقاً سيره ، مزعجاً الفحول الفتية ، مقلقاً الإناث ذوات العجول ، وموصلأ الوعل الجريح إلى الجنون بغضب يائس . استمر ذلك طوال نصف نهار ، ضاعف (بك) نفسه ، مهاجماً من كل الجوانب ، مطوقاً القطيع بدوامة من التهديد ، مقتطعاً ضحيته بسرعة تعادل سرعة إمكان عودة الضحية لأقرانها ، مستنفداً صبر المخلوقات التي يريد الاقتراس من بينها ، ذلك الصبر الذي هو أقل من صبر المخلوقات التي تفترس .

فيما اضمحل النهار وراحت الشمس تسقط في فراشها بالشمال الغربي

(كانت الظلمة قد عادت ، وقد صار طول ليالي الخريف ست ساعات) ، راح العجول الفتيان يعيدون توجيه خطاهم بتحفظ يزداد باطراد لمعونة قائدهم المحاصر . كان الشتاء الهابط يدفعهم دفعا إلى المنحدرات ، كان يبدو أنه لم يكن بمقدورهم أن ينفصوا هذا المخلوق الذي لا يتعب ، والذي كان يبتهم متأخرين ، عنهم . وإضافة إلى ذلك ، فلم تكن حياة القطيع ، أو الوعول الأحداث ، هي المعرضة للخطر . كانت حياة عضو واحد مطلوبة ، وهي مصلحة أبعد من أرواحهم ، في النهاية كانوا راضين بأن يسددوا الضريبة .

فيما هبطت العتمة وقف الوعل ناكس الرأس ، مراقبا أقرانه - الإناث اللائي عرفهن ، العجول الذين كان لهم أبا ، والوعول الذين كان عليهم سيداً - فيما كانوا يترنحون في خطو سريع عبر الضوء المتلاشي . لم يكن بمقدوره أن يتبعهم ، لأن أمام أنفه كان يتقاذز الرعب ذو الأنياب عديم الرحمة الذي ما كان ليعتقه . كان يزن ثلاثمائة وزن* فوق نصف طن ، وكان قد عاش حياة قوية طويلة ، مليئة بالعراك والنضال ، ها هو أخيراً يواجه الموت على أستان مخلوق لا يتجاوز رأسه ارتفاع ركبتيه المعقدتين العظيمتين .

ومنذ ذلك الوقت فلاحقاً ، لم يترك (بك) فريسته قط ، لم يعطها استراحة ثانية واحدة ، لم يسمح لها قط أن تقطع أوراق الأشجار أو تجتث صفار الشجيرات لتأكلها . كما أنه لم يعط الوعل الجريح فرصة إرواء عطشه المحرق في الجداول النحيلة المقطرة التي عبرها . غالباً ما كان ينفجر ، في يأس ، في امتدادات هروب طويلة . وفي مثل هذه الأوقات كان (بك) لا يحاول منعه ، وإنما ينط على هون في أعقابه ، راضياً بالطريقة التي كان يجري بها اللعب ، متمدداً عندما يقف الوعل ساكناً ، مهاجماً إياه بضراوة عندما يجاهد لكي يأكل أو يشرب .

* المائة وزن وحدة وزن انكليزية ، تعادل في أميركا مائة رطل . فيكون وزن الوعل ، على هذا ، ٦٥٠ كيلوغراماً تقريباً .

كان الرأس العظيم ينحط أكثر فأكثر تحت وطأة شجرة قرونة ، وازدادت الخطوات المترنحة ضعفاً . صار يضطر إلى الوقوف فترات طويلة ، أنفه نحو الأرض وأذناه المهمومتان تسقطان بارتخاء ، فوجد (بك) مزيداً من الوقت كي يجد الماء لنفسه ويرتاح . وفي مثل هذه اللحظات ، كان يلهث وقد تدلى لسانه الأحمر وثبتت عيناه على الوعل الكبير ، كان يبدو لـ(بك) أن تغييراً كان يطرأ على وجه الأمور . كان بمقدوره أن يحس نأمة جديدة في الأرض . فيما كان الوعل يتهاوى نحو الأرض ، كانت أنواع أخرى من الحياة تدخل . كانت الغابة والجدول والهواء تبدو مفعمة بوجودها . كانت أخبارها محمولة نحوه ، لا بالنظر ، أو الصوت ، أو الرائحة ، ولكن بمعنى آخر ، وأدق . لم يسمع شيئاً ، لم ير شيئاً ، ومع ذلك فقد كان يدري أن الأرض كانت مختلفة على نحو ما ، وأن أشياء غريبة كانت تجري وتستقر خلالها ، فعزم على أن يتحرى بعد أن يكون قد انتهى من العمل الذي بين يديه .

وأخيراً ، عند نهاية اليوم الرابع ، طرح الوعل العظيم أرضاً . وطوال يوم وليلة بقي إلى جانب القليل ، يأكل وينام ، بأقساط متساوية . ثم - إذ ارتاح وانتعش فصار قوياً - أدار وجهه نحو المخيم ونحو جون ثورنتون . انطلق في نطّات هينة طويلة ، واستمر - ساعة بعد ساعة - دون أن يضل الطريق المتشعب المتشابك ، متجهاً باستقامة نحو موطنه عبر بلاد غريبة بثقة في الاتجاه تجعل الانسان وابرته المغناطيسية يحسّان العار والحيرة .

وفيما استمر على ذلك ازداد وعياً بالنأمة الجديدة في الأرض . كانت ثمة حياة واسعة فيها تختلف عن الحياة التي كانت هنا طوال الصيف . لم تعد هذه الحقيقة تحمل إليه بطريقة غامضة معقدة . كانت الطيور تتحدث بها ، والسناجب تضح حولها ، وحتى النسمة تهمس بها . وبضع مرات توقف واستنشق هواء الصبح الطازج في شهقات عظيمة ، قارناً رسالة كانت تجعله

ينط بسرعة أعظم . كان مضطهداً بشعور من بلية تقع ، إن لم تكن بلية وقعت سلفاً ، وفيما عبر آخر مسقط ماء وهبط منحدرأ إلى الوادي مقابل المخيم ، راح يتحرك بحذر أعظم .

على بعد ثلاثة أميال صادف نيسماً جديداً جعل شعر رقبتة يتموج ويقف . كان النيسم يؤدي باستقامة إلى المخيم وجون ثورنتون . اسرع (بك) ، بخفة وانسيابية ، وكل عصب من أعصابه مجهد ومتوتر ، يقظاً للتفاصيل الزائدة التي كانت تروي الحكاية - كلها فيما عدا النهاية . أعطاه أنفه وصفاً متنوعاً لطريق الحياة الذي كان يمتد في أعقابهِ . انتبه لهدأة الغابة الحلبي . كانت حياة الطير قد انتقلت . كانت السناجب تختبئ . لم ير غير واحد فقط - واحد رمادي لماع ، ملتصق بجذع ميت رمادي بحيث كان يبدو وكأنه جزء منه ، تتوء خشبي على الخشب ذاته .

فيما انزلق (بك) على غير هدى ظل يمشي بطيئاً ، تقلص أنفه فجأة إلى جانب كما لو أن قوة موجبة قد أمسكت به وشدته . تبع الرائحة الجديدة إلى أجمة فوجد نبيغ . كان يتمدد على جانب ، وقد مات بعد أن سحب نفسه ، وثمة سهم يبرز - رأساً وريشاً - من كلا جانبي جسده .

وعلى بعد مائة ياردة ، عثر (بك) على أحد كلاب الزلاجات التي جلبها ثورنتون في داوسون كان هذا الكلب يتلوى في نزاع الموت ، مباشرة على النيسم ، تجاوزه (بك) دون توقف . ومن المخيم جاء الصدى الخابي لعدة أصوات ، يرتفع ويهبط في إيقاع غنائي . وإذ تقدم إلى أمام نحو حافة الأرض المنبسطة . وجد هانس ، مستلقياً على وجهه ، مرأشاً بالسهم حتى بدا كالقنفذ . وفي نفس اللحظة تطلع (بك) إلى حيث كان بيت الجنوع الجميل فرأى ما جعل شعره يقفز مستقيماً على رقبتة وكتفيه . اكتسخته موجة من الغضب المتملك . لم يعرف أنه هرّ ، ولكنه هر بضراوة رهيبة . وللمرة الأخيرة

في حياته سمح للعاطفة أن تكتسح الجراءة والتعقل ، وبسبب من حبه العظيم لجون ثورنتون فقد عقله .

كان هنود الـ(بيهاث) يرقصون حول أنقاض بيت الجذوع حين سمعوا زنبيراً مخيفاً ورأوا - مندفعاً صوبهم - حيواناً لم يشاهدوا شبيهاً له من قبل قط . كان (بك) ، إعصاراً حياً من الغضب ، يطوي نفسه فوقهم في سعار لكي يدمر . قفز على أول رجل (كان زعيم البيهاث) ، شاقاً حنجرته فاتحاً إياها باتساع حتى انفجرت الحنجرة الممزقة نافورة من الدم . لم يتوقف ليزعج الضحية ، بل مزق وهو ير ، بالقفزة التالية حنجرة رجل ثان . لم يكن هناك ما يمكنه . راح يميث في وسطهم تماماً ، ممزقاً ، ناهشاً ، مدمراً ، في حركة مستمرة ومربعة كانت تتحدى السهام التي صبوها عليه ، وفي الحقيقة ، كانت حركاته لا معقولة السرعة ، وكان الهنود من إحكام التشابك فيما بينهم ، بحيث راح أحدهم يصيب الآخر بالسهم . وإذا أطلق أحد الصيادين الشبان رمحاً نحو (بك) في الهواء ، فقد انغرز في صدر صياد آخر بقوة جعلت سنانه ينكسر عند جلد الظهر فيقف هناك ناتئاً . ثم تملك البيهاث فزع ، ففروا في رعب إلى الغابة ، معلنين - وهم يفرون - حلول الروح الشريرة .

وحقاً كان (بك) صورة ابليس ، مسعوراً في أعقابهم وجاراً إياهم إلى أدنى كالغزلان فيما كانوا يتراكمون عبر الأشجار . كان يوماً مصيرياً بالنسبة للبيهاث . تبعثروا فوق رقعة واسعة متباعدة من الأرض ، ولم يتمكن بقية الناجين ، إلا بعد أسبوع ، أن يتجمعوا معاً في واد أسفل ويعدوا خسائرهم . أما فيما يتعلق بـ(بك) ، فحين تعب من المطاردة عاد إلى المخيم المهجور . وجد بيت حيث كان مقتولاً في بطانياته في لحظة المفاجأة الأولى . وكان صراع ثورنتون اليائس طري الكتابة فوق الأرض ، وقد شم (بك) كل

تفصيل من تفاصيله انحداراً إلى حافة حوض عميق . عند الحافة ، كانت تتمدد سكيت ، رأسها وقائمتها الأماميتان في الماء ، مخلصة حتى النهاية . أما الحوض نفسه ، الموحد وذو اللون الشانه بفعل الصناديق المبللة ، فقد كان يغطي بنجاح ما كان يضم ، ولقد كان يضم جون ثورنتون ، لأن (بك) اقتنى أثره إلى داخل الماء ، الذي لم يقد أي أثر منه إلى الخارج .

راح (بك) يفكر طوال النهار عند الحوض أو يتجول دون ارتياح حول المخيم . كان يعرف الموت ، بوصفه توقف حركة أو ابتعاداً عن حيوات الأحياء واختفاء منها ، ولقد عرف أن جون ثورنتون قد مات . ترك ذلك في داخله فراغاً عظيماً ، شبيهاً نوعاً ما بالجوع ، ولكن فراغاً كان يؤلم ويؤلم ، ولم يكن بمقدور الطعام أن يشبعه . وأحياناً ، عندما كان يتوقف ليتأمل جثث البهائم ، كان ينسى ألمه ، في مثل هذه الأحيان كان يشعر بفخر عظيم في ذاته - فخر أعظم من أي فخر سبق له أن جرّبه . لقد قتل ناساً ، وتلك أشرف الألعاب ، وقد قتل في مواجهة قانون الهراوة والأنياب . تشمم الجثث بفضول ؛ لقد ماتوا ببسر بالغ . كان قتل كلب هوسكي أصعب من قتلهم . لم يكونوا أنداداً قط ، من دون نبالهم ورماحهم وهراواتهم . ومنذئذ لن يعود يخشاهم ما لم يكونوا يحملون بأيديهم نبالهم ورماحهم وهراواتهم .

حل الليل ، وارتفع بدر فوق الأشجار في السماء ، منيراً الأرض حتى امتدت سابعة في نهار شبحي . وبحلول الليل ، الباعث على التفكير والمقيم للحداد عند الحوض ، تنبه (بك) حياً لحركة الحياة الجديدة في الغابة تختلف عن تلك التي أحدثها البهائم . وقف ، مصغياً متشماً . من البعيد حمل الهواء همهمات خابية رفيعة ، وتبعها كورس من الهمهمات الحادة المشابهة . وفيما مرت اللحظات اقتربت الهمهمات وارتفعت . ومرة أخرى عرفها (بك) بوصفها أشياء تسمع في العالم الآخر الذي كان يلح في ذاكرته . وسار نحو مركز الأرض الفضاء وراح يصغي . كان ذلك هو النداء ، النداء ذو الأجراس

المتعددة ، يرن مغرباً أكثر ودافعاً أكثر من السابق ، وكما لم يكن قط في السابق ، كان الآن مستعداً للاستجابة . كان جون ثورنتون قد مات . كان آخر رباط قد انفصم . لم يعد الإنسان ، ولا متطلبات الإنسان ، يربطه .

كان قطيع الذئاب - وهو يصطاد لحم معيشته ، كما كان الييهاث يصطادونه ، في أعقاب الوعول المهاجرة - قد عبر أخيراً من أرض الجداول والخشب واستباح وادي (بك) . إلى داخل الأرض المنبسطة حيث كان ضوء القمر ينهمر انصبوا في فيض فضي ، وفي وسط هذه الأرض كان يقف (بك) ، دون حراك مثل تمثال ، منتظراً مجيئهم . كانوا خائفين ، وكان يقف بسكون بالغ وبكبر تام ، وحلت لحظة سكون حتى قفز أجروها باستقامة نحوه . ومثل ومض ، ضربه (بك) ، محطماً العنق . ثم وقف ، من دون حركة ، كالسابق ، والذئب المضروب يتلوى معذباً وراءه . حاولها ثلاثة آخرون في تتابع سريع ، وانسحبوا واحداً بعد الآخر ، يصبون الدم من حناجر أو أكتاف منهوشة .

كان هذا كافياً لبعثرة القطيع كله إلى أمام ، في هرج ومرج ، متزاحماً أفراده فيما بينهم ، محجوراً ومرتبكاً في لهفته على جر الفريسة إلى أدنى . وقد أوقفت سرعة (بك) ومهارته الساحرتين ، أوقفته في وضع جيد . كان وهو يستقر مرتكزاً على ساقيه الخلفيتين ، زاعقاً وجارحاً في كل مكان ، في آن معاً ، عارضاً مقدمة كان واضحاً أنها غير مكسورة رغم الخفة التي كان يدوم بها ويحتمي من جانب إلى آخر . ولكن ، من أجل منعها من الوصول إلى ما وراءه ، كان مضطراً إلى التراجع ، هابطاً الحوض ليعبره ، فإلى حوض الجدول ، حتى انساق صاعداً ضفة الحصى العالية . ظل يعمل على طول زاوية يمين في الضفة كان الناس قد أحدثوها في مجرى التنقيب ، وفي هذه الزاوية وصل إلى «الخليج» محمياً من ثلاثة جوانب وليس أمامه ما يفعله غير المواجهة من أمام .

ولقد أدى المواجهة بإحكام تام ، بحيث أنه عند انتهاء نصف ساعة انسحبت الذئاب مدحورة . كانت ألسن الجميع مدلاة ومرولة ، والأنياب البيضاء تلمع بقسوة ساطعة في ضوء القمر . كان بعضها يتمدد ورؤوسها مرتفعة وآذانها منتصبه إلى أمام ، وبعضها يقف على الأقدام ، يراقبه . ومع ذلك ، كان آخرون يلعبون الماء من الخوض . تقدم ذئب ، طويل ونحيل ورمادي ، بحذر ، بطريقة ودية ، فميز (بك) فيه الشقيق الوحشي الذي سبق له أن جرى معه ليلة ويوماً . كان يهمهم بنعومة ؛ وفيما راح (بك) يهمهم ، تلامس أنفاهما .

ثم تقدم ذئب عجوز ، هزيل وكثير الجروح بفعل المعارك . دور (بك) شفثيه في تكويره بارزة ، ولكنه شم وإياه الأنوف . عندئذ ، جلس الذئب العجوز ، وأشار بأنفه نحو القمر ، وأطلق عواء الذئب الطويل . جلس الآخرون وعووا . والآن ، جاء النداء إلى (بك) في نغمات لا تخطئ . جلس هو الآخر وراح يعوي . وإذ انتهى ذلك ، خرج من زاويته فتزاحم القطيع حوله ، متشممين في حالة نصف ودية ، نصف وحشية ، ورفع القادة مهمة القطيع وقفزوا مبتعدين إلى الغابة . استدار الذئاب على أعقابهم ، مهممين في تناغم . وركض (بك) معهم ، جنباً إلى جنب مع الشقيق الوحشي ، مهمماً فيما هو يركض .

وهنا يمكن أن تنتهي ، تماما ، قصة (بك) . لم تكن قد مرت سنوات عديدة عندما لاحظ البيهات تبدلاً في سلالة ذئاب الغابات ، إذ شوهد بعضها يحمل بقعة بنية على الرأس والبوز ، ولطخة من البياض تنصف صدورها . ولكن الأكثر مدعاة للانتباه كان ما يذكره البيهات عن كلب شبح يجري على رأس القطيع . إنهم يخشون هذا الكلب الشبح لأنه كانت لديه جرأة أكثر من بقية القطيع ، سارقاً من مخيماتهم في الشتاءات القاسية ، مجرداً فخاخهم ،

سالحاً كلابهم ومضلاً أشجع صياديهم .
كلا ، بل تزداد القصة سوءاً . كان ثمة صيادون لا يعودون إلى المخيم ،
وصيادون وجددهم أبناء عشيرتهم مشقوقي الحناجر بقسوة ، تملوهم علامات
ذنب في الشلج تبدو أعظم من أي علامات ذنب أخرى . وفي كل خريف ،
عندما كان اليهيات يقتفون حركة الوعل ، كان ثمة واد معين لا يدخلونه
قط . وكان ثمة نساء يشعرن بالحزن عندما تنتشر الكلمة فوق النار عن
كيفية مجيء الروح الشريرة لاختيار ذلك الوادي بوصفه مكاناً للمقام .
وفي مواسم الصيف . كان ثمة زائر وحيد لذلك الوادي ، لم يكن يعرفه
اليهيات . إنه ذنب عظيم ملفوف بأبهة مثل كل الذئاب الأخرى ، ويختلف
عنها بنفس الوقت . إنه يعبر وحيداً من أرض الخشب الباسمة ويهبط إلى
فضاء مكشوف بين الأشجار . هنا يجري جدول أصغر من أكياس جلود الوعل
المتعفنة ويغور في الأرض ، والأعشاب الطويلة تنمو فيه والطحالب الخضرة
تغطيه وتخفي صفرتة عن الشمس . هنا يتساءل عن الوقت ، عاوياً مرة
واحدة ، طويلاً وبحزن ، قبل أن يرحل .
ولكنه ليس وحيداً دائماً . فعندما تأتي ليالي الشتاء الطويلة وتتبع
الذئاب لحمها إلى الوديان الدنيا ، ربما يشاهد جانياً على رأس القطيع خلال
ضوء القمر الشاحب أو ربح الشمال الباهتة ، قافزاً كالعملاق فوق زملائه ،
وحجرتة العظيمة نحو الأسفل ، فيما هو يغني أغنية من العالم الفتى ، هي
أغنية القطيع .

الفهرست

7	١- إلى الیدائی
21	٢- قانون الهراوة والناپ
33	٣- الوحش المسیطر الأزلی
51	٤- من کسب لیسود
63	٥- کد العنان والطریق
83	٦- من أجل حب رجل
101	٧- تردد النداء

نداء البداية

ففر الرجال أفواههم وبدأوا يتنفسون ثانية ، غير مدركين أنهم كفوا دقيقة عن التنفس . كان ثورنتون في الورا ، يشجع (بك) بكلمات قصيرة مرحة ، قيس المسافة ، وفيما اقترب من كومة خشب الوقود التي كانت نهاية المائة ياردة ، بدأ صراخ يعلو . ثم انفجر في زئير عندما اجتاز كومة الخشب ووقف بناء على أمر صادر . كان كل رجل يطلق لنفسه العنان ، حتى ماثيوسون . كانت القبعات والقفايزات تتطاير في الهواء . كان الرجال يتصافحون ، لا يهم مع من ، ويدوون

في لغط ، غير مترابط ، عام . ولكن ثورنتون هوى على ركبتيه إلى جانب (بك) . كان الرأس على الرأس ، وكان يهزه إلى أمام وإلى وراء . وقد سمع أولئك الذين أسرعوا مقتربين ، سمعوه يشتم (بك) . ولقد شتمه طويلاً وبحرارة ، وداعماً ومحنة .